كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

حولية

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

مجلة علمية محكمة

العدد الخامس والعشرون

يشرف على تحريرها

أ.د/ ناهد يوسف رزق يوسف
عميد الكلية

أ.د/ محاسن فكري عبد الخالق
وكيل الكلية

لعام
١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

للتواصل مع المجلة والاستفسارات

توجه جميع المراسلات باسم الأستاذ الدكتور: رئيس تحرير المجلة

على صفحة تواصل المجلة على موقع بنك المعرفة المصري على الرابط التالي:

https://bfsgm.journals.ekb.eg/journal/contact.us

أو البريد الإلكتروني للمجلة:

mgirlsmansoura@azhar.edu.eg

أو العنوان التالي:

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة - شارع الشيخ محمد متولي الشعراوي - عزبة الشال - المنصورة - محافظة الدقهلية - مصر

البحوث المنشورة تعبر عن آراء الباحثين ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو القائمين عليها

الترقيم الدولي الموحد للطباعة

2735-5241

الترقيم الدولي الموحد الإلكتروني

ISSN: 2735-525X

أدبية الرحلة

عند

الإمام محمد الخضر حسين

"دراسة تحليلية"

إعداد

د. هبة الله السيد توفيق هلال

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

أدبية الرحلة عند الإمام محمد الخضر حسين
" دراسة تحليلية"

هبة الله السيد توفيق هلال.
قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات، جامعة الأزهر، المنصورة. جمهورية مصر العربية.
البريد الالكتروني: HebatallahHelal148.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

تحلق هذه الدراسة في آفاق النصوص الرحلية، وإشكالية تجنيسها، ولماذا تنفلت من التحديد الإجناسي، وتعدد مسمياتها، وانفتاحها على حقول متعددة متنوعة من العلوم والمعارف، واختلاف مفاهيمها، ومدى إمكانية وسمها بالأدبية، ثم محاولة مقاربة نصوص رحلية متميزة للإمام محمد الخضر حسين، كونها - رحلات حديثة - لما في ذلك من رد على شبهة انقراض هذا الفن الأدبي، أو التشكيك في استمراريته. وأنها لعلم من أعلام الأزهر وأئمته وهنا انصب التركيز على الجانب البنائي دون المضموني أو التاريخي، حيث دراسة النصوص الرحلية للإمام من حيث كونها شكلا أدبيا له بنيته الخاصة التي يمكن تتبعها وتحديدها ودراستها، ومحاولة البحث عن المميزات الأدبية، والسمات الأسلوبية (الزمن - السرعة - الوصف - الحوار) التي تقربها من السرد الأدبي، وتجعل منها نصوصا أدبية فضلا عن كونها رحلة، وقد تعددت مناهج البحث ما بين التاريخية، والوصفية التحليلة، والنقدية، - كل حسب موقعه - لتعدد جوانب الموضوع، وتشعب قضاياه.

الكلمات المفتاحية: محمد الخضر حسين، الرحلة، السرد الأدبي، التجنيس، المصطلح.

The literature of travelogues according to Muhammad Al-Khader Hussein, "A descriptive and analytical study"

Hebat Allah Al Said Tawfiq Hilal
Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls, Al -Azhar University, Mansoura. Arab Republic of Egypt.
Email: HebatallahHelal148.el@azhar.edu.eg

Abstract:

This study examines the horizons of travelogue texts, the problem of their classification, and why they escape the classification definition, the multiplicity of their names, and their innovation to accommodate a wide variety of sciences and knowledge, their different concepts, and the extent to which they can be identified with literature, then an attempt at distinct travelogue texts by Imam Muhammad al-Khidr Hussein. As being - recent - This responds to the suspicion of the extinction of this literary art, or questioning its continuity. It is one of the prominent figures of Al-Azhar and its imams. The focus was on the structural aspect rather than the content or the historical aspect, as the Imam's travelogue texts were studied in terms of a literary form that has its own structure that can be traced, identified and studied, and an attempt was made to search for literary features and sequential features (time - speed - description and dialogue) which brings it closer to literary narration, and makes it into literary texts beside being a voyage. Research methods have developed between historical, descriptive, analytical, and critical - each according to its location - due to the multiplicity of aspects of the topic and the diversity of its issues.

Keywords: Muhammad Al-Khader Hussein، Travelogues, Literary narrative, Classification, Terminology.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين،

وبعد...

يعد محكي الرحلة جنسا زئبقيا مستعصيا على التحديد، فهو مجمع خطابات متعددة متنوعة تكسبه زخما وثراء في هذا الفضاء المعرفي، مما جعل تحديده مصطلحا أدبيا، ومعالجته فنيا أمرا صعبا.

ومن هنا كانت الدراسة محاولة للكشف عن هذه الإشكاليات، ثم محاولة مقاربة نصوص رحلية متميزة من خلال البحث عن المميزات الأدبية، والسمات الأسلوبية التي تجعل منها نصوصا أدبية فضلا عن كونها رحلة.

وجاء اختياري لرحلات الإمام محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأديب اللغوي المصلح، من عدة جهات منها أنها رحلات حديثة؛ لما في ذلك من رد على شبهة انقراض هذا الفن الأدبي، أو التشكيك في استمراريته. وأنها لعلم من أعلام الأزهر وأئمته، ورائد من رواد الوسطية والتجديد في القرن الرابع عشر الهجري، ذي مواقف مشرفة في خدمة الإسلام والمسلمين.

ولهذا فإن إشكالية البحث تثير عددا من التساؤلات أهمها:

- لماذا تنفلت الرحلة من الاندراج في خانة نوع معين؟ ومن التحديد الاجناسي الدقيق؟
- هل يمكن تبين بنية سردية تميز أدب الرحلة وتحدد معالمه؟
- هل يمكن دراسة النصوص الرحلية للإمام دراسة أدبية؟

ومن هنا كانت الرغبة في تناول هذا الموضوع بالدرس والتحليل، وخاصة في ظل نقص الدراسات التحليلية فجلّ ما اطلعت عليه إنما هو دراسات وصفية عرضية تهتم بالمضمون ولا توفي هذا النتاج الكبير حقه حتى في ما وقع تحت يدي من دراسة متخصصة تحت عنوان:

"**أدب الرحلة عند محمد الخضر حسين الرحلة الجزائرية أنموذجا**" وهي

بحث مقدم لكلية الآداب واللغات جامعة أدرار بالجزائر لنيل درجة الماجستير في اللغة والأدب العربي تخصص دراسات جزائرية في اللغة والأدب للباحثة بورقبة مريم، فالبحث - على سبقه وأهميته - جاء مقتصرا على الرحلة الجزائرية دون بقية الرحلات، كما اهتمت الباحثة بالعرض التاريخي المطول للإمام وحياته في أطوارها المختلفة، وأفاضت الحديث عن الرحلات وأنواعها وأهميتها ودواعيها ونشأتها وتطورها منذ الجاهلية حتى العصر الحديث، ثم اختزلت عند الدراسة السردية الوصفية التحليلة فجاءت مقتضبة، حسب ما فرضته عليها طبيعة الرحلة - موضع الدراسة - هذا ولم تخل الساحة الأدبية من دراسات سابقة لها علاقة بالموضوع، كما في الدراسات التالية:

- أدبية الرحلة، عبدالرحيم مودن، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ

- الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر: مستويات السرد، عبدالرحيم مودن، دار السويدي، أبوظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م

- أدب الرحلة عند محمد الخضر حسين (الرحلة الجزائرية) رسالة ماجستير في جامعة أدرار، الجزائر، للباحثة بورقبة مريم ٢٠١٣م

هذا وقد اهتم مودن بأدبية الرحلة عموما في الأول، وفي الثاني اهتم بمستويات السرد في الرحلات المغربية في القرن التاسع عشر، واقتصرت الباحثة على الرحلة الجزائرية دون باقي الرحلات، هذا إلى جانب أنها ركزت على المضامين وجاء حديثها عن الأساليب مقتضبا.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة

جاء التمهيد في مبحثين، الأول في معنى الرحلة، والثاني عن الرحالة.

أما الفصل الأول: فقد كان دراسة نظرية تحت عنوان "**أدبية الرحلة** "، وقد جاء في ثلاثة مباحث، انضوى الأول تحت عنوان **إشكالية التجنيس** واضطراب الحقول، وفيه حاولت عرض إشكالية التجنيس والتصنيف وما شابها من خلط بين الشكل والمضمون، ثم محاولات تقريب الأدبية من النص الرحلي التي ظهرت مع ظهورالمناهج الغربية الحديثة.

وجاء الثاني تحت عنوان **إشكالية المصطلح**، وفيه عرجت على تنوع المسميات، ثم جاء الثالث تحت عنوان **إشكالية المفاهيم**، وفيه دار الحديث حول اضطراب المفاهيم عند الحديث عن النصوص الرحلية والذي نتج عن هذا الخلط المنهجي.

أما الفصل الثاني: فقد اشتمل على الدراسة التطبيقية وجاء بعنوان: **" البناء الفني لرحلات الإمام نصا سرديا"** وفيه حاولت دراسة النصوص الرحلية للإمام من حيث كونها شكلا أدبيا له بنيته الخاصة التي يمكن تتبعها وتحديدها ودراستها، وقد انضوى تحت لوائه أربعة مباحث، الترتيب الزمني، السرعة، الوصف وأخيرا الحوار.

ثم ختمت البحث بخاتمة ضمت أهم النتائج والتوصيات

هذا وقد تعددت جوانب الموضوع وتشعبت قضاياه، مما استلزم تنوعا في المناهج البحثية ما بين التاريخي، والوصفي التحليلي، والنقدي كل في موقعه حسبما اقتضت طبيعة البحث.

ولم تخل الدراسة من صعوبات لعل من أهمها نقص الدراسات التحليلية لبناء الرحلات، وانصباب الغالبية منها على المضامين فقط

وفي الختام فإن هذا العمل بشري يعتريه النقص، ويعتوره القصور والزلل، فما كان فيه من صواب فمن توفيق الله، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله أسأل أن يغفر الزلل، ويتجاوز عن الخطأ، ولله الحمد أولا وأخيرا.

وصلِّ اللهم وسلم على معلم البشرية الخير وعلى آله وصحبه أجمعين

التمهيد

المبحث الأول

الرحلة

ينبغي علينا قبل الحديث عن الرحلة أن نفرق بين الرحلة كفعل وبين الرحلة كلفظ، فالفعل يعني انتقال شخص أو أشخاص من مكان لآخر، وهذا ما دارت حوله المعاجم اللغوية، ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس: " رحل: الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مُضيٍ في سفر، يقال: رحل يرحل رحلة.والرحلة: الارتحال. ورحَّله: إذا أظعنه من مكانه"[(١)]

وجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي: "ارتحل البعير: سار ومضى، والقوم عن المكان: انتقلوا، كترحَّلوا. والاسم الرِّحلة والرُّحلة بالضم والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضم: الوجه الذي تقصد، والسفرة الواحدة"[(٢)]

كما نالت مادة (رحل) اهتماما من صاحب لسان العرب " باعتبارها مادة متداولة على نطاق واسع، ونابعة من واقع البيئة العربية "[(٣)] فجاء فيه" رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا، ورجل رحول، وقوم رُحَّل؛ أي يرتحلون كثيرا. ورجل رحَّال: عالم بذلك مجيد له. والترَّحُّل والارتحال: الانتقال وهوالرِّحلة والرُّحلة. والرِّحلة اسم للارتحال للمسير، والرُّحلة بالضم: الوجه الذي تأخذ فيه وتريده؛ تقول: أنتم رُحلتي أي الذي أرتحل إليهم"[(٤)]

---

(١) معجم مقاييس اللغة، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، ط٢، دار الفكر، سوريا، ١٩٧٩م، مادة "رحل"

(٢) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، ط٨، مؤسسة الرسالة، لبنان، ٢٠٠٥م، باب اللام/فصل الراء، ١٠٠٥.

(٣) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ناصر عبدالرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٩٥م، ٢٣

(٤) لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م، مادة "رحل"

على كلٍّ، فإن مادة " رحل " تدور حول الحركة. فهي جوهر الرحلة وأساسها، وكثيرا ما تكرر المعاجم اللغوية الأخرى هذه المعاني، وهو المعنى الذي ورد في القرآن الكريم في وصفه لرحلتي قريش التجاريتين إلى اليمن شتاء والشام صيفا، يقول عز من قائل ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾ (قريش: ١-٢)

كما استعمل العرب صيغة المبالغة رحَّال اسما أو لقبا لبعض الجاهليين، كعروة الرَّحَّال الذي كان سببا في يوم "الفجار" وكما أورد الحموي في معجمه هذا الاسم" رحَّال بن عنقرة "[١]

وإذا كانت اللغة قد أجمعت أن الرحلة حركة وانتقال، فإن حدود المصطلح قد اتفقت هي الأخرى على ذلك، فقد عرفها بطرس البستاني بأنها " انتقال واحد - أو جماعة- من مكان إلى مكان آخر؛ لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة"[٢] وكانت نظرة الدكتور صلاح الشامي أوسع أفقا حين عدها " إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان، وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر، وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة في نفس الإنسان وترضيه، وقد تكون الرحلة احترافا يخدم حاجة الإنسان ويشبعه، ولكنها تكون في الحالتين استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة والتنقل"[٣]

أما المعنى الثاني الذي يهمنا هنا، فهو الرحلة كلفظ، يحكي فيها الرحالة ما عايشه في سفره من أحداث، وما شاهده من مشاهد، وأثر ذلك في نفسه.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا، أن التفريق بين الفعل واللفظ مهم لتحديد مجال الاهتمام والبحث، على الرغم من تواشج العلائق بينهما، لأن كتابة الرحلة تستلزم القيام بسفر، ولا نستطيع تصور كتابة رحلية دون رحلة - إلا في الرحلات

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م، مادة (هزمان) ، ٤٠٥/٥
(٢) دائرة المعارف، بطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٤م، ٥٦٤/٨
(٣) الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، د.صلاح الدين الشامي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الرابع، ١٩٨٣م، الكويت، ١٣

الخيالية - فالرحلة بكونها فعلا ليست مجال اهتمامنا هنا- فالملايين قد ارتحلوا دون أن يكونوا رحالة - بينما الرحلة كنص يصبح رحلة جديدة تضيء الرحلة الفعل، فالسفر يعاد إنتاجه بالكتابة، والكتابة الرحلية حكاية سفر، تهب الأماكن آفاقا متنوعة، ورؤى جديدة، وتعكس تجربة ذاتية غنية بالمشاهدات البصرية والسمعية، وهو مدار الدراسة، ومحور اهتمامها

المبحث الثاني
الرَّحالة

في الجنوب التونسي، في واحة النخيل "بنفطة" أو كما عُرِف عنها " الكوفة الصغرى"[١]، عام ١٢٩٣هـ بزغت شمس إمامنا وشيخنا محمد الخضر حسين[٢] في بيت علم وأدب وشهرة وورع، تمتد جذوره إلى أسرة ماجدة في الحسب والنسب والشرف، وأفرادها نجوم تتلألأ في العلم والمعرفة، حيث "تعود أسرته إلى البيت العمري في بلدة (طولقة) جنوب الجزائر، وقد رحل والده إلى نفطه من بلاد الجريد بتونس، بصحبة صهره (مصطفى بن عزوز) ومما يدل على عراقة أسرته في العلم أن منها جده (مصطفى بن عزوز)، وأبا جده لأمه (محمد بن عزوز) من أفاضل علماء تونس، وخاله (محمد المكي) من كبار العلماء، كان موضع إجلال في الخلافة العثمانية"[٣]

اسمه الحقيقي محمد الأخضر بن الحسين بن علي ينتهي نسبه إلى الحسن السبط بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤] "أما أبوه فهو الحسين بن علي من مريدي الشيخ مصطفى بن عزوز صاحب الطريقة الرحمانية، وأما أمه فهي السيدة الصالحة حليمة السعدية بنت الشيخ مصطفى بن عزوز، وهي من الشهيرات بالتقى، والعلم والصلاح"[٥] وفي كنف هذه البيئة العلمية تربى شيخنا، واستقى علومه.

وفي نفطة كانت نشأته الأولى التي تأثر فيها بأبيه وخاله، فاشتغل بالعلم بعد

(١) تشبيها لها بمدينة الكوفة المركز العلمي الشهير بالعراق؛ لما كانت تعج به من فرق مختلفة، ومن حلقات العلم والتدريس والمناظرة، انظر: محمد الخضر حسين حياته وآثاره، محمد المواعدة، الدار الحسينية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ١٨

(٢) وهو المعروف به في الأوساط الثقافية والعلمية، انظر: السابق، ١٣

(٣) الشيخ محمد الخضر حسين، أحمد عبدالعزيز أبوعامر، مجلة البيان، العدد الثالث، المنتدى الإسلامي، الإصدار الأول، ربيع الآخر١٤٠٧هـ/ديسمبر١٩٨٦م، ٧٣

(٤) محمد الخضر حسين حياته وآثاره، ١٣

(٥) الشيخ محمد الخضر حسين سيرته ومؤلفاته، د/محمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ٣١

أن حفظ القرآن، وفي آخر عام ١٣٠٦هـ رحل مع أبيه وأسرته إلى القاعدة التونسية، فدخل الكلية الزيتونية سنة ١٣٠٧هـ، وقرأ على أشهر أساتذتها، وتخرج عليهم في العلوم الدينية واللغوية، ونبغ فيهما وفي غيرهما، فطُلب لتولي بعض الخطط العلمية قبل إتمام دراسته، لكنه أبى، وواظب على حضور دروس العلماء والأكابر"[١]

يقول الإمام في مقدمة ديوانه خواطر الحياة: " نشأت في بلدة الجريد بالقطر التونسي، يقال لها (نفطة) وكان للأدب المنظوم في هذه البلدة نغمات تهب في مجالس علمائها، وكان من حولي من أقاربي وغيرهم من يقول الشعر، فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي، وحاولت في سن الثانية عشرة نظم الشعر"[٢] فالإطار الأدبي الذي نشأ فيه الإمام كان له دور في نمو ذائقته الأدبية، وتفجر ملكاته الفكرية.

وفي هذا الأديم الطاهر، وفي ربوع هذه البيئة الزكية، قدر لهذه الشخصية الفذة أن تنمو وتترعرع، وتزهر وتثمر، فقدر له أن يكون قامة سامقة، ذا همة عالية في الدفاع عن الفكر الإسلامي واللغة والفقه والأدب والإصلاح الاجتماعي.

ولم يكن الشيخ ليرتوي من العلم مهما علا شأنه، ومهما تبحر في علومه، حتى بعد أن صار عالما له في ميدان العلم تاج وصولجان، فارتحل طلبا للعلم، ورغبة في التعرف على أحوال الأمم المعرفية والثقافية، فقال: " من أنفس ما يكسبه الرجل في رحلته أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل، فكم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار إليه بالبنان إلا بالرحلة !

ولابن خلدون في "المقدمة" مقالة افتتحها بقوله: إن الرحلة في طلب العلم ولقاء الأساتذة مزيد كمال من التعلم" وختمها بقوله: " فالرحلة لابد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال"[٣]

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ٣٧٨

(٢) ديوان خواطر الحياة، ٧

(٣) الرحلات، ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، شركة دار النوادر الكويتية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ١٠

وهنا يظهر اهتمام الإمام بالرحلة وحرصه عليها، وحثه النشء على خوض غمارها؛ لما فيها من فوائد تعود عليهم وعلى أمتهم بالنفع، من طلب العلم، والتفكر في أحوال الأمم السابقة والاعتبار بمصائرهم، والخروج من ديار الضلال والبغي إلى دار الرشاد والحق، فعرف أنه كان جوّابا رحّالة يحب الأسفار، وقضى فيها شطرا من حياته متنقلا بين البلدان ما بين الجزائر وتونس ودمشق ثم الآستانة إلى تونس فدمشق فالحجاز فالبلقان وألبانيا والآستانة فدمشق ثم ألمانيا ثم إلى دمشق فالقاهرة التي استقر بها. وفي رحلاته اتصل بالعديد من العلماء، وانتهز فرصة التدريس كلما سنحت له، وناقش القضايا العلمية والفقهية والأدبية.

حتى إذا ألقى عصا الترحال في القاهرة عام ١٣٣٩هـ، سطع نجمه وبلغ قمة مجده الثقافي والمعرفي؛ حيث ألف خلالها معظم نتاجه العلمي، وتقلد فيها المناصب الرفيعة، ونظرا لمكانته العلمية والأدبية اشتغل بالكتابة والتحرير، وكان العلامة أحمد تيمور أول من قدر الشيخ في علمه وأدبه، فتوطدت علاقتهما وساعده حتى تقلد منصبا في دار الكتب المصرية، بجانب دروسه ومحاضراته، ثم قدم الأزهر ممتحنا أمام لجنة من العلماء برئاسة العلامة الكبير الشيخ عبدالمجيد اللبان اكتشفت سعة آفاق علمه، وعرفت قيمته وقدره، وأعجبت به ايما إعجاب، وهو الذي لم يدرس يوما واحدا في رحاب الأزهر"؛ لما أبداه من رسوخ قدم في العلم، وما أدهشهم من قوة حجته، وفصاحة منطقه ما جعل أحد الممتحنين يصيح بأعلى صوته: هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج" ومنحته درجة العالمية بامتياز، وأصبح أستاذا في كلية أصول الدين والتخصص لاثني عشر عاما،

وفي عام ١٣٤٤هـ رد على دعوى الشيخ (علي عبد الرازق) في دعواه الفصل بين الدين والدولة بكتاب (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم)، وفي عام ١٣٤٥هـ أصدر كتابه (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) والذي دفع فيه مزاعم (طه حسين) وافتراءاته في قضية انتحال الشعر، وما تضمنه من افتراءات ضد القرآن الكريم،

وشارك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين والهداية الإسلامية عام ١٣٤٦هـ، وفي عام ١٣٤٩هـ صدرت مجلة (نور الإسلام- الأزهر حاليا) وتولى رئاستها مدة طويلة، وفي عام ١٣٥١هـ منح الجنسية المصرية ثم صارا عضوا بالمجمع اللغوي، ثم تولى رئاسة مجلة (لواء الإسلام)

مدة من الزمن، وفي عام ١٣٧٠هـ تقدم بطلب عضوية جمعية كبار العلماء فنالها ببحث (القياس في اللغة)، وفي ١٣٧١/١٢/٢١هـ تولى مشيخة الأزهر وما كان ينتظرها في يوم من الأيام، فقد قال لخلصائه: "لقد سقطت المشيخة في حجري من حيث لا أحتسب"، واستحالت أمنيات أمه حليمة السعدية الورعة التقية، حقيقة بعدما كانت بعيدة المنال، وهي تهدهده من مدينة نفطة التونسية " تكبر يا أخضر وتكون شيخ الأزهر"[١]

تقلد الشيخ مشيخة الأزهر وفي ذهنه خطة إصلاحية، ورسالة طالما تمنى قيام الأزهر بها، وقد أعطى المنصب حقه موفورا من التكريم والإعلاء، فلم يداهن أو يتملق أو ينافق، بل كان ذا همة عالية، متقد العزيمة، صداعا بالحق مجاهرا به لا يخشى في الله لومة لائم، وكان دائما ما يردد"إن الأزهر أمانة في عنقي، أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة، وإذا لم يتأت أن يحصل للأزهر مزيد من الازدهار على يدي، فلا أقل من أن لا يحصل له النقص" فإذا ما شعر الإمام بالعراقيل تمنعه من أداء مهمته على أكمل وجه، تنحى، وأبى إلا الاستقالة، قائلا " إن كانت جنة فقد دخلت فيها، وإن كانت نارا فقد خرجت منها "، ليتفرغ بعد ذلك للبحث والمحاضرة، حتى انتقل إلى جوار ربه في رجب ١٣٧٧هـ وقد خلف وراءه إرثا حضاريا وفكريا عظيما، ينهل منه طلابه حتى اليوم، من أهمها: - محمد رسول الله وخاتم النبيين، - الخيال في الشعر العربي، - دراسات في العربية وتاريخها، - مناهج الشرف، الدعوة إلى الإصلاح، - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، - الإلحاد "طبائعه، مفاسده، أسباب ظهوره، علاجه" - ديوان شعره (خواطر الحياة)

وقد قام بجمع آثاره ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، ثم طبعت في موسوعة أعمال كاملة، تحت إشرافه بدار النوادر بدمشق.

دفن الشيخ في المقبرة التيمورية بجوار مسجد الشافعي بالقاهرة كما أوصى، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة، ورضي عنه وأرضاه، وجزاه خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين.

(١) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، شركة دار النوادر الكويتية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ٢١٦-٢١٧

الفصل الأول
أدبية الرحلة

- المبحث الأول: إشكالية التجنيس
- المبحث الثاني: إشكالية المصطلح
- المبحث الثالث: إشكالية المفاهيم

المبحث الأول
إشكالية التجنيس

ما بين الأدبية والعلمية تجاذبَ النقادُ النصوصَ الرحلية، فالنص الرحلي يتسع لكثير من العلوم والفنون" الأمر الذي جعل الباحثين يحاولون تمزيق هذا النص قطعا لصالح مناهجهم واختصاصاتهم؛ محاولة منهم في فهم الشعوب والحضارات القديمة والأساليب الثقافية والعقائدية في المجتمعات التي اخترقها الرحالة العرب المسلمون مؤلفو هذه الرحلات"[(١)] مما جعلها موسوعة تحتضن بين طياتها العديد من العلوم اللغوية، والتاريخية، والجغرافية والأدبية.

وبالنظر في الدراسات الأولية للكتابات الرحلية، وكذا بعض الدراسات الحديثة نجد أنها لم تهتم بإشكالية التجنيس والتصنيف، رغم لفتها الانتباه إلى الجانب الأدبي للرحلة وإدراجها لها كفن أدبي.

ربما تأثرت الدراسات العربية الأولى لأدب الرحلات كثيرا بما كتبه المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي) فقد ركزت على مضامين تلك النصوص الرحلية ولم تقف على الخصائص التي تميزها كنص أدبي دون غيره من النصوص.فقد صُنفت الرحلة العربية ضمن "الجغرافيا الوصفية التي ترتبط بها ارتباطا وثيقا قصص الرحلات"[(٢)] وبهذا تصطبغ الرحلة عنده بالعلمية (الجغرافيا) والأدبية (القصص) ومن هنا استخدم مصطلح الأدب الجغرافي" الذي يقدم متعة ذهنية كبرى، إذ نلتقي فيه بنماذج أدبية / فنية رائعة - صيغت بالسجع أحيانا - والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة، والإمتاع والحيوية من جهة أخرى، وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص"[(٣)]

(١) أدب الرحلة إشكالية المصطلح وزئبقية المفهوم، نصيرة بحري، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد١٩، ٢٠١٩م، ٤٧

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمه من الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ٢٠.

(٣) السابق، ٢٨.

ومن هنا كان تصنيفها لهذه النصوص وفقا لاقتراب تلك المضامين من الجغرافيا أو المناسك أو المهام السياسية، ولم تهتم ببنية النصوص الرحلية بوصفها جنسا أدبيا له سماته الخاصة التي تميزه عن غيره من الخطابات السردية الأخرى؛ ولهذا اقترنت تسميات الرحلة بحقول غير أدبية كالأدب الجغرافي ونحوه. يؤكد هذا أن ناقدا أدبيا كبيرا كشوقي ضيف يصفها بأنها مجرد كتب رحلات منها "الجغرافية والبحرية والبرية في الأمم والبلدان"[١] وأن مظاهر أدبيتها تقتصر على أنها تأتي "في أسلوب قصصي بديع، يؤكد الواقع أحيانا، وينشئ لنا عوالم خيالية أحيانا أخرى" ثم أطلق حكمه الشهير بأنها "خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب، ونقصد تهمة قصوره في فن القصة"[٢] دون تحديد مظاهر أدبيته، أو الكشف عن أبرز ملامحها.

ولما كانت الرحلة انتقالا من مكان إلى مكان آخر فقد تعرض النص الرحلي للتشتت والخلط المنهجي بين الرحلة كفعل حركي فيزيائي، وبين الرحلة كبعد تعبيري مقيّد بالكتابة، نجد هذا عند الدكتور حسين محمد فهيم الذي عرف الرحلة بقوله " نحن نرى في الرحلة نوعا من الحركة، وهي أيضا مخالطة للناس والأقوام، وهنا تبرز قيمة الرحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية، ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة "[٣]

يخلط الدكتور حسين بين الرحلة كحركة وانتقال من مكان إلى آخر وبين الرحلة ككتابة يحكي فيها الرحالة مشاهداته، وانطباعاته الذاتية والعاطفية، وما عاشه من أحداث أثناء سفره، وأثر هذه المشاهدات في روحه ووجدانه، و"بسبب هذا التشتت ذهب بعض الباحثين إلى إضافة كلمة أدب إلى الرحلة (أدب الرحلة) ليفرقوا بينها وبين الرحلة بوصفها حدثا واقعيا لها أهداف ودوافع تخرجها من

(١) فنون الأدب العربي: الفن القصصي-٤الرحلات، د/شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٥.

(٢) السابق، ٥-٦.

(٣) أدب الرحلات، د/حسين محمد فهيم، طبعة سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٩م، كتاب رقم١٣٨، ١٩.

دائرة الأدب إلى دائرة المعارف والعلوم"[١]

ولم يقف الخلط المنهجي عند التشتت بين الرحلة كحركة أو لفظ، فقد امتد إلى تنوع المسميات، وتباين مصطلحات النص الرحلي، وهو ما يسميه الأستاذ سعيد يقطين "خطاب الرحلة"[٢] ويعرفه على أنه " عملية تلفيظ لفعل الرحلة "[٣]

وفي سياق تأصيله لهذا المفهوم، أشار إلى أن الاشتغال بأحد الطرفين المادي أو الخطاب كان السبب الرئيس في تنوع مسميات النوع الأدبي المتعلق بالرحلة إلى الرحلة، أدب الرحلة، الأدب الجغرافي، وغيرها كما أدى إلى اختلاف طبيعة خطاب هذا النص من جهة أخرى" فمنهم من يعتبره تاريخا وآخر جغرافيا وآخر سيرة ذاتية أوقصة"[٤] ويذهب إلى أن خطاب الرحلة " يتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية "[٥]فهذا الخطاب يواكب الرحالة في أماكن مختلفة واصفا إياها بما خالط نفسه ووقعت عليه عيناه جغرافيا واجتماعيا وثقافيا ومعرفيا، ومن لقيه من رجالاتهم، ونسائهم، وما دار في مجالسهم من مناقشات ومحاورات، وفوائد علمية دينية وأدبية، يصوغ كل ذلك بما تيسر له من أساليب مختلفة تظهر فيها ثقافته، وخلفيته المعرفية والأدبية، ومقدرته الأدبية.

ولا شك أن كل هذا يكسب النص الرحلي تعقيدا في قضية التجنيس، نظرا لتعدد انتسابات النص الرحلي ما بين التاريخ والجغرافيا والاجتماع والأدب، فهو " نص غير واضح الحدود، يمكن أن يسكب فيه أي شيء: التوسيعات العلمية، وفهارس المتاحف، وحكايات الغرام، فهو يمكن أن يكون كتابا مليئا بالعلم، أو دراسة نفسية، أو بكل بساطة قصة حب أو كل ذلك معا"[٦]

(١) تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، د/عبدالعليم محمد إسماعيل علي، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة، ٤

(٢) خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جدة، الجزء التاسع، المجلد الثالث، ١٩٩٣م، ١٦٥

(٣) السابق، ١٧١.

(٤) السرد العربي مفاهيم وتجليات، ٢٠١، ٢٠٢.

(٥) خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، ١٧٠.

(٦) الرحالة وكتب الرحلات الأوربية إلى المشرق حتى نهاية القرن الثالث عشر، جبور الدويهي،

كل هذا جعل من النص الرحلي جنسا مستعصيا على التجنيس داخل الأجناس الأدبية في النقد الغربي فالرحلة عند دومينيك كومب تندرج ضمن قسم المقالة التي هي " كل نص لا ينتمي إلى الخيال ولا إلى الشعر ولا المسرح، فهي الجنس الذي يجمع بين كل الأجناس التي نبذتها الأجناس الكبرى"[١]"ولهذا فهي أقل الأجناس وضوحا [...] ومع ذلك تتميز بسمة ثابتة هي: تفضيلها للنظر العقلي والأفكار، والفكر الخطابي وليس للخيال"[٢]

أما النقد العربي القديم فقد اكتفى بتقسيم الأدب إلى القطبين الكبيرين الشعر والنثر، وقسم الشعر إلى أغراض، والنثر إلى فنون، لم نجد للرحلة فيها ذكرا لدى الناقد العربي القديم.

فلما انفتح النقد العربي على الغربي واستقرت الأجناس الأدبية، ولما برزت السرديات والشعرية فُتحت أبواب جديدة للبحث والدرس في النقد العربي، فقد عدَّ الأستاذ شعيب حليفي الأجناس السردية " جسورا لتتواصل فيما بينها، رغم اختلافها من حيث البناء والتسميات إلى قطبين كبيرين، كان لهما حضور متبادل ومتواتر هما: الشكل الخالص والهجين، تضمنت الأشكال الخالصة: المقامة والسيرة والحكاية الشعبية والرحلات، أما الأشكال الهجينة فيندرج ضمنها الخبر والمحكيات الصغرى المتفرقة، ثم أدب القيامة، والتراجم، والطبقات وأخبار الشعراء"[٣]

فقد عد الباحث النص الرحلي ضمن الأشكال الخالصة، وقد خالفه في ذلك الأستاذ عبدالنبي ذاكر فذهب إلى أن الرحلة "شكل أدبي هجين، ينماز بتعدد أوجهه وتمظهراته، إلى حد أنه يمكن القول: إنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع؛ وذلك بإدماجه أنماطا خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه شكل مائع ومرن إلى حد كبير، إلى شدة تعقده واحتماله

=
مجلة الفكر العربي، العدد٣٢، ١٩٨٣م، ٥٨.

(1) Les genres litterairesed Hachette Paris Dominique Combe 1992 pp 16

(٢) السابق، ١٦

(٣) الرحلة في الأدب العربي، التجنس، أليات الكتابة، خطاب المتخيل، شعيب حليفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية- شهرية ١٢١، أبريل ٢٠٠٢م، ٢٥

لأنماط وأساليب ومضامين كتابية تبعده عن البساطة الظاهرة لتجعل منه جنسا مركبا وكليا وشموليا وعاما، وجنس الأجناس"[١]

ويؤكد جبور الدويهي على هُجنة النص الرحلي بكونه "نوعا من التعبير الأدبي الهجين والضبابي"[٢]

والحقيقة التي لا يستطيع أحد إنكارها أن النص الرحلي منفتح على العديد من المعارف والعلوم مضمونا، فـ"أدب الرحلة وعاء لكل مضمون، وهو لا يفرق بين مضمون خسيس وآخر شريف، أو بين مضمون مهم وآخر تافه، كل مضمون قابل للتدوين طالما قبله ذوق الرحال، واقتنع به "[٣]

الأمر الذي جعله قبلة لكل ذي علم يجد فيه ضالته، حيث يعد وثيقة جغرافية، تاريخية، دينية، أدبية واجتماعية، أما من جهة الشكل فإننا نجد فيه السرد والوصف والحكايات والأخبار والأشعار، فهو ذو طبيعة غنية " إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب، بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين، وللغويين وعلماء الطبيعة"[٤]

لقد خلط كثير من الباحثين - منهجيًا - بين مكونات الرحلة وأدبية الرحلة، وبين دراسة المضمون في إطار الشكل وبين دراسة المضمون في إطار الحقل، فالأنثروبولوجي والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم من أصحاب المعارف- يدرسون الرحلة في إطار الحقول المعرفية التي ينتمون إليها؛ فالرحلة بالنسبة إليهم عبارة عن وثيقة تاريخية تفصح عن معلومات ومضامين وقيم، أما النقد الأدبي فنظرته مختلفة؛ فمنذ تأسيس الشكلانيين الروس مفهوم الشعرية أو الأدبية لم يترك الباب مفتوحا للتخمين والانطباع عن قضية الأدب؛ فقد جعلوا الأدبية أو الشعرية بحثًا في السمات أو الخصائص التي تجعل من قول ما أدبًا.[٥]

(١) المحتمل في الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، أكادير، ١٩٩٨م، ٨٣

(٢) الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى الشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر، ٥٩

(٣) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ٤٨

(٤) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١٩.

(٥) تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، ٨

يظهر ذلك عند زكي محمد حسين في (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ١٩٤٥م) وشوقي ضيف في (الرحلات ١٩٥٧م) وأحمد أبو سعد (أدب الرحلات١٩٦١م) وجورج غريب (أدب الرحلة تاريخه وأعلامه ١٩٦٦م) وحسني محمود حسين في (أدب الرحلات عند العرب ١٩٧٦م) وصلاح الدين الشامي (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة ١٩٨٢م) وحسين محمد فهيم (أدب الرحلات ١٩٨٩م) وفؤاد قنديل (أدب الرحلة في التراث العربي٢٠٠٢م).

ومع تعاطي النقد العربي المناهج الغربية الحديثة التي تمخضت عنها تيارات نقدية عديدة - أصبحت تُطبَّق كنظريات تسهم في توضيح الكيفية التي تتشكل بها النصوص الأدبية كالبنيوية والسردية والسيميائية - اهتم عدد من الباحثين ببنيات النصوص الرحلية، ومقومات أدبيتها، وتجنيسها، ومحاولة حصر خصائص السرد الرحلي عن غيره من النصوص السردية، وكان لكتابات عبدالرحيم مودن (أدبية الرحلة ١٩٩٦م) وشعيب حليفي (الرحلة في الأدب العربي: التجنس - آليات الكتابة - خطاب المتخيل ٢٠٠٢م) وسعيد يقطين (السرد العربي مفاهيم وتجليات ٢٠٠٦م) دور كبير في فتح آفاق جديدة للدارسين العرب وتوجيه ملكاتهم الفكرية نحو الرحلة بوصفها جنسا أدبيا، وخطابا سرديا وبخاصة في الجامعات المغاربية.

المبحث الثاني
إشكالية المصطلح

إن المتتبع لمصطلح الرحلة ذاته في المراجع العربية يجد اضطرابا في المصطلح وتعددا في النعوت والمسميات لم يعرف له نظير في الفنون الأخرى، وإذا كان ابن العربي له السبق في استخدام مصطلح الرحلة في عنوان مؤلفه (ترتيب الرحلة)[١](•) فقد وسمت بالرسالة والتصنيف والكتاب والتقييد والتذكرة، فهذه رحلة ابن فضلان نعتها محققها بالرسالة بينما سماها صاحبها بالكتاب[٢] كما سمى ابن الخطيب رحلته بكتاب الرحلة غير أن محقق الرحلة كان له رأي آخر فقال: "والواقع أن إطلاق كلمة رحلة على جميع أجزاء الكتاب فيه شيء من المبالغة والتعميم؛ لأن الكتاب كما هو واضح من عنوانه (نفاضة الجراب) عبارة عن خليط عجيب من النثر والشعر والتاريخ أما وصف الرحلة في حد ذاته فيقع في الواحد وعشرين

(١) أدبية الرحلة عند العُبُودي رحلاته إلى البرازيل أنموذجا، عمران بن محمد الأحمد، رسالة ماجستير، جامعة القصيم، كلية اللغة العربية والآداب الاجتماعية، المملكة العربية السعودية، ٣٩

(•) ذكر الإمام ابن العربي (٤٦٨هـ -٥٤٣هـ/١٠٧٥م-١١٤٨م) في مقدمة كتابه قانون التأويل أن أصل كتاب ترتيب الرحلة، للترغيب في الملة قد كتب الله عليه الضياع، واستلبته الحوادث بما سبق في علم الله من التدبير، فارتأى أن يجدد منه ما سلم في الرقاع الموجودة، مع ما حضر في الذكر، ليكون عنوانا لما جرى، وتنبيها على فضل ما تأوب وسرى، وقد جاء محققا في القسم الثاني من كتاب (مع القاضي أبي بكر بن العربي، سعيد أعراب، ضمن أعمال الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان)
ثم جاء الدكتور محمد بن إبراهيم الشيباني فتتبع رحلات ابن العربي إلى المشرق في كتابه أحكام القرآن في كتابه (قطوف من ترتيب الرحلة للترغيب في الملة- الرحلة إلى المشرق والعودة منه-للعلامة أبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، جمعها ورتبها وعلق عليها، د.محمد بن إبراهيم الشيباني، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، قسم الرحلات، ٢٠١٩م، الكويت)

(٢) رحلة ابن فضلان، ابن فضلان تحقيق: سامي الدهان، مكتبة الثقافة العالمية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٧م، ٢٥-٣٤.

ورقة الأولى من هذا المخطوط"[١] ويسمي ابن قنفذ رحلته الزيارية بالتقييد، فيما يلغي ابن هطال مفهوم الرحلة ويعوضها بالكتابة والتأريخ والرسائل[٢]، وهذا أبو حامد الأندلسي يصف رحلته مرة بالكتاب وأخرى بالتصنيف والرسالة[٣] بينما يسمي أبو دلف رحلته بالرسالة قائلا "ورأيت تجريد رسالة شافية "[٤]

فإذا ما أَجَلنا النظر في الدراسات الحديثة التي دارت حول النص الرحلي وجدنا جملة من النعوت والمسميات ارتبط بعضها بالمضامين كالجغرافيا، نجد هذا عند الباحث الغربي كراتشكوفسكي في كتابه الموسوم بـ (تاريخ الأدب الجغرافي)، كما أطلق عليها ناصر عبدالرازق الموافي مصطلح " الجغرافيا الوصفية "[٥]

أما الباحث يوسف وغليسي فقد تعددت لديه المصطلحات ما بين أدب المسالك والممالك، وأدب التضاريس، متأثرا بالكتابات الرحلية الكثيرة في القرن الرابع الهجري والتي خدم بها العرب علم الجغرافية فيقول: " وقد نسمح لأنفسنا بتسميتها أدب المسالك والممالك، وإذا أردنا استنصاص تراث جغرافي عربي كبير، اتخذ من التسمية الواحدة عنوانا لمجموعة كُتب كَتبها كتّاب مختلفون أردنا التماسها في كشف الظنون فألفينا عددها لا يقل عن تسعة كتب مختلفة تتراوح عناوينها بين المسالك والممالك ومسالك الممالك"[٦] ويقول ولما كان هذا النص يصور أحوال الشعوب وثقافاتهم، وعاداتهم، وطرق معيشتهم فقد وسمه الباحث بالأدب الإثنوغرافي[٧].

(١) خطرة الطيف، رحلات في المغرب والأندلس، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: أحمد مختار العبادي، دار السويدي، الطبعة الأولى، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣م، ٢٦.
(٢) أدب الرحلة إشكالية المصطلح وزئبقية المفهوم، ٤٢
(٣) تحفة الألباب ونجفة الإعجاب، أبو حامد الأندلسي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، المغرب، ١٩٨٣م، ١٢.
(٤) الرسالة الثانية، أبو دلف، ترجمة وتعليق: محمد منير مرسي، عالم الكتب، مصر، ١٩٧٠م، ٣٠.
(٥) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ٨٩
(٦) في ظلال النصوص تأملات نقدية في كتابات جزائرية، يوسف وغليسي، جسور للنشروالتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، ٢٠٠٩م، ٢٨٢.
(٧) السابق، ٢٧٩.

ولهيمنة السفر على النص الرحلي ربط بعض الباحثين المصطلح به، فوسم الكتابة الرحلية بـ " **أدب السفر**"[١] ومنهم من وسمها بـ"**السفرنامة**"[٢] ومنهم من اقترح تسميتها بـ" **قصة السفر**"[٣]

ولارتباط الرحلة بالترحل فقد وسمها البعض بكتب "**الترحال**"، حتى إن الباحثة ترى " أن في الترحال أصل، وأدب الرحلة فرع عنه"[٤]، ووضعت لكل منهما إطارا فنيا خاصا به، فكتب الترحال مقترنة بالانتقال الجسدي مع الموضوعية التاريخية، كما اشترطت فيه العلمية القائمة على الوثائق التاريخية لا على الخيال، وأن يكون البطل راويا، والشخصيات واقعية، وأن يتسم بالانطباع الذاتي المنهج.أما أدب الرحلة فلا يشترط فيه الانتقال فقد تكون رحلاته خيالية مصطنعة، ومادة المتن قائمة على مخزون ثقافي قادر على نسج أحداث واقعية أو خيالية، كما أن الانطباع فيه ذاتي عاطفي، والشخصيات أنماط مختلفة.[٥] كما ترى الباحثة أن " كتب الترحال تعد من الوثائق الشخصية، وتنطوي داخلها جزء من سيرة الشخص أو يومياته أو مذكراته، في حين أدب الرحلة هي من المخزون الإبداعي للشخص"[٦]

وهناك من أطلق عليه مصطلح " **أدب المذكرات** " قائلا " عرفت هذه الفترة لونا من أدب المذكرات، وقد تعلقت هذه المذكرات خاصة بموضوع الرحلات، فقد اتفق أن سافر كتاب جزائريون إما داخل الجزائر أو خارجها فصوروا شعورهم إزاء ما شاهدوا وسجلوا عواطفهم تجاه ما صادفهم في رحلاتهم، وهذا اللون من الأدب

(١) رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن، نواف الجحمة، دار الأهلية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١م، ٥.

(٢) أدب الرحلة بين محوري التموقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكاليات والآفاق، الطيب بوقرط، مجلة تاريخ العلوم، العددالسادس، ١٦٦.

(٣) فن الرحلة في الرواية العربية من خلال "الأشجار لعبدالرحمن منيف"، بلقاسم مارس، دار نهى، الطبعة الأولى، صفاقص، ٢٠٠٧م، ١١.

(٤) مفهوم الترحال وأدب الرحلة: التعالق والاختلاف وخصوصية الرحلة إلى المدينة المنورة، أمل بنت الخياط التميمي، الآطام، المجلد الثالث عشر، العدد ٤٠/٣٩، النادي الأدبي بالمدينة المنورة، ربيع الآخر١٤٣٢هـ/مارس٢٠٠١م، ١٢

(٥) السابق، ١٣

(٦) السابق، ١٠

وإن لم يشع في الجزائر على نحو يجعل منه فنا رفيعا ذا نتائج أدبية ذات شأن فإنه مع ذلك لا يخلو من مسحة أدبية تجعل إهماله ضربا من العقوق، وقد اهتم بهذا الفن كتاب يختلفون في الثقافة والتوجيه والسن، ولعل أهمهم جميعا أربعة، وهم: ابن باديس، محمد الغسيري، محمد بوزوزو وحمزه بوكوشة"[1]

على كل، فقد تعددت النعوت والمسميات لأدب الرحلات، ولعل مرد هذا الاختلاف راجع إلى ضخامة النصوص الرحلية، وثرائها وموسوعيتها، وطبيعتها الانفتاحية، وقدرتها على احتواء عدد من الأجناس الأدبية الأخرى، واختلاف زوايا نظر الباحثين أنفسهم، الأمر الذي يصعب معه تحديد مفهوم واضح ومحدد تلتقي حوله كل الآراء."وقد ظل هذا التنوع في النعوت شاهدا على وضعيتين اثنين: الالتباس في التجنيس وغياب الوعي به، ثم التداخل بين الأشكال وغلبة بعض المسميات في عصر دون آخر"[2] ولا شك أن مثل هذا الخلط أورث الباحثين حيرة واضطرابا جعل إمكانية وضع مصطلح جامع مانع للنص الرحلي إشكالية مطروحة للدرس النقدي.

(١) فنون النثر الأدبي في الجزائر(١٩٣١-١٩٥٤م) ، عبدالملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣م، ٢٩٣.

(٢) الرحلة في الأدب العربي، التجنس، آليات الكتابة وخطاب المتخيل، ، ٤٤

المبحث الثالث
إشكالية المفاهيم

إذا كانت المسميات قد تنوعت فإن المفاهيم قد شهدت اضطرابا هي الأخرى، فكل قد نظر إلى النص الرحلي من وجهة نظره، فهو نص متعدد الأصوات والخطابات، يظهر ذلك جليا في كتاب الرحلات للدكتور شوقي ضيف، فعلى الرغم من أنه قد عرض فيه أشهر كتب الرحلات عند العرب، وقسمها أقساما منها البرية والبحرية والجغرافية، وخصص رحلتي ابن جبير وابن بطوطة بالشرح لكنه لم يشر إلى مفهوم أدب الرحلة.

وقد أرجع شعيب حليفي صعوبة تحديد وصياغة مفهوم الرحلة إلى عدة اعتبارات رئيسية منها " غياب تقعيد واضح للمفهوم، سواء عند الرحالة أو عند اللغويين العرب، وجود نصوص رحلية كثيرة ثرية ومتنوعة، الأمر الذي يصعب معه تحديد مفهوم جامع تلتقي حوله كل أنواع الرحلة، انفتاح النص الرحلي على عناصر أخرى تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص"[(١)]

على الرغم من الإجماع على صعوبة تحديد مفهوم واضح للرحلة فإن الباحثين قد حاولوا قدر المستطاع تقريب الصورة للمتلقي، فالباحث إسماعيل زردومي يرى فيه" ذلك اللون من التأليف الذي يجمع بين الدافع الوجداني العميق، والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة ودقة، والبحث عن الأسباب والنتائج ببصيرة واعية"[(٢)]ويظهر لنا من خلال حديثه أنه جعل من شروط النص الرحلي أن يمتزج مع نفس الأديب، ويذوب في وجدانه، وأن ينقل الكاتب لنا المشاهد الرحلية من خلال ذاته، وتفاعله معها، ولا شك أن في هذا الشرط إقراراً بأدبية النص الرحلي.

وتعرف إنجيل بطرس أدب الرحلات بقولها" هو الرحلة التي يقوم بها رحالة

(١) الرحلة في الأدب العربي، التجنس، آليات الكتابة وخطاب المتخيل، شعيب حليفي، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٦م ٦٨-٦٩

(٢) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، إسماعيل زردومي، أطروحة دكتوراه، في الأدب القديم، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، باتنة، ١٢

إلى بلد من بلدان العالم ويدون وصفا له، يسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"[١] وهنا تركز الباحثة على أركان النص الرحلي وهي الرحالة، السفر، الوصف والموضوعية.

وهذا ما يذهب إليه الحاتمي الذي حاول الإحاطة بالمفاهيم الموضوعية الشاملة حين ذهب إلى أن " الرحلة خطاب تنشئه ذات مركزية، هي ذات الرحالة، تحكي فيه أحداث سفر عاشته، وتصف الأماكن المزورة، والأشخاص الذين لقيتهم، وما جرى معهم من حديث، وغايتها من هذا الحكي إفادة القارئ وإمتاعه"[٢] وقد جمع هنا في تعريفه بين العلمية المتمثلة في الكم المعرفي الذي يعرضه لنا النص الرحلي، كما لم يغفل جانب الأدبية التي تظهر في الإمتاع والتشويق.

وإذا كان الحاتمي قد اقتصر على وصف الرحالة الدقيق لمشاهداته في البلاد المزورة، فإن الباحث مجدي وهبة يضيف إلى ذلك الوصف عنصر الانطباع والتأثر، فالأديب المتمكن هو الذي يعرض لنا الحدث مختلطا بوجدانه وعاطفته، فهو يرى أن أدب الرحلات هو " مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلةً مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد"[٣]

ويتجاوز الباحث عمر قينة الانطباع الذاتي إلى الحكم على الآخر، كما يرى فيه ضربا من السيرة الذاتية فيقول: " فن الرحلة لون أدبي، ذو طابع قصصي، فيه فائدة للمؤرخ مثل الباحث في الأدب، والجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، كما هو ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة ظروف وأوضاع، وفي اكتشاف معالم وأقطار ووصفها، والحكم عليها وعلى المجتمع فيها حكاما ومواطنين، فهو وصف في النهاية لكل ما انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته"[٤] فهو لا يكتفي

(١) الرحلات في الأدب الإنجليزي، إنجيل بطرس، مجلة الهلال، العدد ٧، ١ يوليو١٩٧٥م، ٥٢
(٢) الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، محمد الحاتمي، تقديم عباس الجراري، منشورات فريق البحث في التراث السوسي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ٦٣
(٣) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م، ٥٧٧.
(٤) في الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات =

بموقف الراصد فحسب، وإنما يصف وينقد كل ما تلتقطه عدسته من مشاهد ومواقف.

وتتفق معه الباحثة نوال الشوابكة في التعريف بهذا الفن - كونه ضربا من السيرة - فتقول" أدب الرحلات فن تغمره الحياة، يزخر بالتجارب الحية، والحركة والانتقال من مكان لآخر، وهو بهذا يلتقي بالسيرة، ذلك أن كلمة سار تدل على المسير والانتقال، وتومئ بطول الطريق، وقطع المسافات، وتعدد المراحل، وهذا يتفق مع الكتابات التي تؤرخ لسيرة الإنسان منذ طفولته إلى شيخوخته"[(١)] فهي تحاول أن تضيء لنا معالم اقتراب أدب الرحلات من السيرة الذاتية، باعتبارها تعبر عن أصحابها، وتكشف عن قدراتهم، ومواهبهم ودوافعهم للنهوض بتلك الرحلات.

على أية حال، فإن هذا الغنى المضموني للنص الرحلي جعل قيمته المعرفية تتفوق على قيمته الأدبية مما حدا بالباحثين إغفال الجوانب الأدبية والتركيز على العلمية تبعا لاهتمام الباحث، ومجال دراسته، فالمؤرخ يجد فيه تربة خصبة لما يبحث عنه من أخبار وسير، والجغرافي يستقي منه المعلومات الجغرافية التي أوردها الرحالة عن الأماكن المزورة أو حتى التي مر بها، والإثنوغرافي يبحر في ثقافات الشعوب وعاداتها، وطرائق تفكيرها، أما الدارس الأدبي فيجد فيها أنماطا أسلوبية وأنواعا أدبية تدلل على ذوق الرحالة، وشخصيته، وطريقة تفكيره، والظروف الثقافية والاجتماعية التي أفرزت لنا مثل هذه العقلية.كل هذا يجعل من النص الرحلي نصا " مستعصيا على الانتساب النوعي "[(٢)]وهذا مما جعل التسمية متعددة متنوعة، والمفهوم ملتبسا غير واضح.

كل هذه المضامين ينبغي ألا تصرفنا عن محاولة الكشف عن الخيوط التي تربط النص الرحلي بعضه ببعض، وتجعله عملا متكاملا قادرا على توليف خطابات

=

الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥م، ٩٧.

(١) الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، نوال عبدالرحمن الشوابكة، دار المأمون، الطبعة الأولى، عمان، ٢٠٠٨م، ٢٤٣.

(٢) المقامات، السرد والأنساق الثقافية، عبدالفتاح كيليطو، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ١٢٧.

متعددة تحت هيمنة بنية السفر، إذ يحتوي على مجموعة من المعارف والأساليب تم التعبير عنها بطريقة تتأرجح ما بين العلمية والأدبية، وبين لغة العاطفة ولغة التقرير العلمي، بين الشعر والنثر، بين الخبر والحكاية، "وما كان للنص الرحلي أن يجمع بين جميع هذه المتباينات لولا تمتعه ببنية أدبية مرنة جعلت منه جذرا لكل الأجناس الأدبية"[١].

ولما كان النص الرحلي يستضيف كما هائلا من الخطابات والصيغ والأساليب يمكننا القول إنه" شكل تعبيري يصلح أن يمثل جنسا أدبيا من أهم ملامحه تعدد الملامح الشكلية"[٢]

الغالبية ممن تحدث عن الرحلة اهتم بالمضمون على حساب الشكل، نظر إلى مقومات خارجية لا تمت إلى الأدبية بصلة، فوصف المكان وتصويره، وحوار الآخر والكشف عن ثقافاته، والوثائقية الجغرافية أو التاريخية للأماكن المزورة، كل هذه الأمور لا تحقق أدبية نص ما، - على أهميتها في التعريف بالرحلة - إنما يجب علينا البحث فيما يحقق هذه الأدبية من سمات وخصائص، لذا ينبغي علينا التركيز على القول لا الفعل، البحث في الصياغة اللغوية لا الحدث المادي، يجب أن نبحث في ماهية الخصائص والسمات التي تحقق أدبية النص الرحلي، ينبغي أن ننظر في الطريقة التي صيغت بها الرحلة بغض النظر عن مضامينها ومصداقيتها التي لا تعنينا كثيرا.

إذن لا بد أن هناك عناصر مشتركة تربط هذا العمل بعضه ببعض، حتى يخرج لنا في صورة عمل متكامل" ومعرفة هذه العناصر المشتركة " يقدم لنا بقدر كبير قواعد إنتاج النص، وقواعد تلقيه في آن معا"[٣]فليس من الصواب تصنيف الرحلة تحت مسمى (أدب الرحلة) دون التفكير في بنية هذه النصوص الرحلية، ولا يمكن إدراج جميع النصوص الرحلية في دائرة الأدب - على الرغم من محاولات

(١) أدب الرحلة، سؤال الأدبية وإشكالية الانتماء، نصيرة بحري، نورية هاتي، مجلة الموروث، جامعة عبدالحميد بن بادس مستغانم، كلية الأدب العربي والفنون، الجزائر، المجلد التاسع، العدد الثاني، ديسمبر٢٠٢١م، ٢٨١

(٢) المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ٩

(٣) السابق، ١٥.

بعض الباحثين الدؤوبة لذلك - فليس من الضروري أن تستلزم كل رحلة مضافا أدبيا، كما لا ينقص من قدرها فقدانه.

على كلٍّ، فقد حوى السرد أشكالا تعبيرية عدة، اندرج معظمها تحت الأدب، بينما مثل القليل منها حقولا معرفية مستقلة، كالتاريخ والجغرافيا والاثنولوجيا، **والحق أن طريقة توظيف تقنيات السرد في أي عمل سردي - ومنها النصوص الرحلية - هو ما يقربه من الأدبية أو يبعده عنها** "فالرحلات التي وصلتنا منذ قديم الزمان تتفاوت في درجة سماتها الأدبية، فبعض الرحلات محض كتابة تقريرية يتوارى صوت الراوي من مشهدها ليفسح المجال أمام الوصف الموضوعي الذي تنعدم فيه درجات التخييل والتبئير، لذا فإن تجنيس الرحلة أدبيا يقتضي وجود السمات الأساسية للأدبية"[١]

وهذا ما سأحاول إلقاء الضوء عليه في الصفحات التالية من البحث بأمر الله تعالى، فسوف أتناول بالدرس والتحليل السمات السردية الأدبية، وتقنياتها، في رحلات الإمام محمد الخضر حسين - عليه سحائب الرحمة والرضوان - في محاولة متواضعة لتقريب الخلاف النقدي الدائر في الساحة الأدبية حول الرحلة وأدبيتها.

(١) تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، ١٢

الفصل الثاني

البناء الفني لرحلات الإمام محمد الخضر حسين

نصًّا سرديًّا

- المبحث الأول: الترتيب الزمني
- المبحث الثاني: السرعة
- المبحث الثالث: الوصف
- المبحث الرابع: الحوار

المبحث الأول
الترتيب الزمني

للزمن قدرة على بلورة النص السردي الجديد وتشكيله تشكيلا فنيا متميزا، حيث يبتعد عن الحيادية والاصطناع ليؤثر في الكائنات والأشياء، ويرتب الوقائع والأحداث، متخطيا النمطية والخطية في السرد ليصبح زمن الحلم وزمن الإبداع، ويفقد بذلك تسلسله المتدرج ليتحرك كما أراد عبر تداخل بين أنواع الأزمنة.(١)

وقد اهتم النقد الحديث بدراسة الزمن باعتباره هيكلا تقوم عليه بنية الشكل السردي، فكان الشكلانيون الروس في صدارة من نظَّر لمفهوم الزمن، فأطلقوا على الحكاية: "المتن الحكائي"، بينما عبروا عن الخطاب بـ: "المبنى الحكائي"، ولم يلتفتوا في دراساتهم إلى طبيعة الأحداث في ذاتها وزمنها، وانصب اهتمامهم على العلاقات التي تربط أجزاءها.

ويتفاضل الكتاب ويتمايزون فيما بينهم بتنوع طرق الخطاب المختلفة للحكاية الواحدة، إذن فللراوي - كاتبا واقعيا أو راويا تخييليا- أن يغير في ترتيب الأحداث تقديما أو تأخيرا؛ بغية التأثير في القارئ وتشويقه إلى قراءة المتبقي من الأحداث.(٢)

وندرس في هذا المبحث الترتيب الزمني (ترتيب الأحداث في الخطاب) ومدى موافقة تسلسلها للأحداث في الحكاية، فقد يختزل الخطاب أحداثا عدة في كلمات، الأمر الذي يقتضي إعادة ترتيب واصطفاء للأحداث بما يتواءم مع رؤية الكاتب ويحقق أهدافه. هذا التفاوت ينتج لنا ما يسمى بالـ (المفارقة الزمنية) والذي يمكن التعرف عليها من خلال الدلائل والقرائن النصية المباشرة أو غير المباشرة(٣) بما يحصل في ثناياه من استباقات وارتدادات.

---

(١) في الرواية والقصة والمسرح، قراءة في المكونات الفنية والجمالية السردية، محمد تحريشي، دار دحلب للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧م، ٦٠

(٢) إشكالية الزمن في النص السردي، عبدالعالي بوطيب، فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، صيف١٩٩٣م، ١٢٩

(٣) طرائق تحليل السرد الأدبي، مجموعة كتاب، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، الطبعة الأولى، =

الترتيب الزمني في رحلات الإمام الخضِر حسين:

يمكننا تقسيم النص الرحلي عند الإمام إلى مفاصل كبرى تتفرع بدورها إلى مفاصل صغرى، وسنبدأ بدراسة الكبرى ثم الصغرى انطلاقا من العام إلى الخاص.

دوّن الإمام رحلاته تدوينا يكشف عن مقدرته السردية، فقد اختط لبدايتها خطة زمنية واضحة يستهلها بمحطة الذهاب ذاكرا الزمان والمكان، محددا وسيلة النقل المستخدمة، يظهر ذلك في مفتتح الرحلة الجزائرية حيث يقول "عقدت العزيمة على الظعن في الساعة الثامنة صباحا من اليوم الخامس من الشهر المذكور(شهر رمضان سنة ١٣٢٢هـ) واتخذت سبيلي في البر، ...، فانسحب بنا القطار"[١]

ويقول في صدر الرحلة الشرقية "سنح لي باعث على الرحلة إلى بلاد الشام، ...، فامتطيت الباخرة يوم الخميس الرابع من شعبان سنة١٣٣٠هـ "[٢]

وفي حديثه عن رحلته إلى دمشق يقول " سافرت من القاهرة في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الأحد ٢٥ربيع الآخر سنة ١٣٥٦هـ، الموافق ٤ يوليو سنة ١٩٣٧م. ووصلت إلى حيفا في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الإثنين وامتطيت سيارة إلى دمشق"[٣]

أما في رحلته إلى سورية ولبنان فقد حدد محطة الانطلاق والوصول وتاريخهما قائلا" سافرت من القاهرة يوم السبت ١١ جمادى الآخرة، ووصلت إلى دمشق في الساعة السادسة بعد ظهر يوم الأحد"[٤].

أما مرحلة العودة فتختلف من رحلة إلى أخرى فالرحلة الجزائرية لم ينشر الإمام تتمتها في مجلة السعادة العظمى لتوقفها عن الصدور، وكان آخر ما وقعت

=

١٩٩٢م، ٤١

(١) الرحلات، ٢٦

(٢) السابق، ٤٧

(٣) السابق، ١٢٨

(٤) السابق، ١٣٩

عليه يد المحقق زيارته للمكتبة العمومية في طرابلس التي أعرب عن أسفه أنه لم يتمكن من زيارتها إلا في آخر أيام إقامته.

أما الرحلة الشرقية فقد اختتمها ببيتين من الشعر يعبر فيهما عن عجبه بما لاقاه في رحلته، وفخره بما شاهده في ترحاله وفرحته الغامرة بعودته إلى دياره قائلا[١]:

أرى سفري شعرا ولكن بيوته مفصلة في غير بحر وفي بحري

ومقطع عودي من بدائعه ألا ترى عجزا قد رد فيه على صدري

أما رحلته إلى دمشق فقد اختتمها بالثناء على مفتي الحنابلة فيها قائلا" وممن لقيتهم على جانب عظيم من الاهتمام بالحالة الدينية في الشرق، وتتبع ما يظهر في مصر وغيرها من الآراء الدينية: حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ جميل الشطي مفتي الحنابلة "[٢]وكذا اختتم رحلته إلى سورية ولبنان جاءت موافقة لغرضه من رحلاته حيث ذكر جملة من الدروس التي حضرها وأبدى إعجابه بها فيقول" وأعجبت بحسن إلقاء هذه الدروس، واختيار موضوعها، ونقد شؤون كان في استطاعة الحكومة إصلاحها"[٣]

على كل، فمرحلة العودة محصورة في هذه الجمل المقتضبة التي يختم بها الإمام رحلاته معلنا عن انتهاء رحلته ومغادرته.

ومن الواجب أن نذكر هنا أن هذه الخواتم وردت في نهاية الرحلات عندما يعتزم على العودة، أما في داخل المدونة الرحلية الواحدة فنجد عددا من الخواتم عند الانتقال من مكان إلى آخر إلا أنها لا تختلف عن الخواتم الأساسية فقد اتفقت مع أغراضه التعليمية والدعوية من رحلاته ما بين إفادة علمية أو ذكر معاهد تعليمية أو علماء أجلاء وأسى على مفارقة تلك المرابع التي تغص بالعلم وأهله، كما كان يبدي أساه إذا مر بمربع طُويت محاضر دروسه.

(١) الرحلات، ١٢٧
(٢) السابق، ١٣٨
(٣) السابق، ١٤٤

ولعل الإمام اختصر طريق العودة معرضا عن ذكر تفاصيلها لأنه أتى على كل ما يقصده من تدوين رحلته من أغراض علمية، ودينية، ودعوية.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن فواتح الرحلة لم يلتزم فيها بالحديث عن الرحلة مباشرة، فقد مهد في الرحلة الجزائرية بذكر الداعي لها فقال: "كنت أسعفت فيما سلف من الزمان بإجراء سياحة في أطراف المملكة الجزائرية، وبقيت النفس مستشرفة إلى إعادتها تارة أخرى إلى مدينة الجزائر نفسها...حتى مكنتنا الفرصة من توطيدها وإبرازها إلى حيز الوجود في شهر رمضان المعظم من هذه السنة(١٣٢٢هـ)"[١]

وقد يمهد لها بذكر السبب في تدوينها كما في الرحلة الشرقية حين قال: "اقترح علي جماعة من الفضلاء أن أحرر خلاصة في آثار رحلتنا الشرقية، فعطفت عنان القلم لمساعفة اقتراحهم، بعد أن رسمت له الوجهة العلمية والأدبية سبيلا لا يحيد عن السير في مناكبها" ثم عقب بذكر الداعي للرحلة فيقول: "سنح لي باعث على الرحلة إلى بلاد الشام، وهو زيارة الأهل؛ وفاء بحق صلة الرحم"[٢]

على أية حال فقد سار الإمام في مفاصله الكبرى سيرا أفقيا متتابعا موازيا للترتيب الزماني والمكاني للقصة، وغالبا ما تكون محددة التاريخ والمكان كما في الرحلة الجزائرية مثلا:

- عقدت العزم على الظعن في الساعة الثامنة صباحا من اليوم الخامس من الشهر المذكور ... واستوى على محطته الواقعة على جناح من بلد سوق أهراس في الساعة الرابعة مساء
- وفي الساعة الخامسة صباحا سافرت إلى "تبسة"
- ومن الغد قصدت "عين البيضاء" في الساعة السادسة مساء
- بارحت "عين البيضاء" في الساعة السادسة صباحا، فوصلنا "قسنطينة"بعد مسير الرتل ست ساعات تقريبا
- وفي الساعة الخامسة صباحا تحرك بنا القطار من "باتنة"... وفي الساعة

(١) الرحلات، ٢٦
(٢) السابق، ٤٧

الثامنة أشرفنا على عاصمة الجزائر.

وكما نجد في الرحلة الشرقية ما يدل على السير التعاقبي الموافق لسير الحكاية الزمني والمكاني:

- فامتطيت الباخرة يوم الخميس الرابع من شعبان سنة ١٣٣٠هـ
- رست الباخرة على جزيرة " مالطة" عند مغرب يوم الجمعة
- بارحنا "مالطة"عند الزوال يوم السبت
- باكرنا يوم الخميس إلى القطار المصري
- سافرت صباح الأحد إلى (بورسعيد)
- عزمت على السفر من دمشق يوم الإثنين في شوال

ولئن كانت المفاصل الزمنية الكبرى في المدونة الرحلية عند الإمام متتابعة تتابعا موافقا لسير الحكاية الزمني والمكاني فإنه لم يلتزم ذلك في وحدات الخطاب الزمنية الصغرى، فقد لجأ إلى مخالفة الترتيب الزمني للحكاية مستخدما تقنيات السرد الزمني من الارتداد أو الاستباق؛ ارتدادا إلى الماضي لاسترجاع أحداث مضت، أو قفزا إلى الأمام استشرافا لأحداث مستقبلية بغية الإعلان عنها والتمهيد لها؛ تشويقا للقارئ، وتهيئته للأحداث المقبلة، وحمله على التكهن بها، مع ما فيه من التنويع والمراوحة بين تقنيات السرد مما يطرد السأم عن المتلقي ويجعله دائم الترقب والارتباط بالنص.

عند تتبع الارتداد في مدونات الإمام الرحلية نجد الشق الخارجي دون الداخلي، ويكون الخارجي ممتدا إلى أحداث سابقة للنطاق الزمني قبل الرحلة، أما الداخلي فتقع أحداثه ضمن نطاق الرحلة كما حدده جينيت[(١)]

وفي استخدام الإمام للاتداد الداخلي إثراء للنص الرحلي بأحداث سابقة عليه " بما يصنع رؤية رأسية غالبا ما تبدو سكونية على الرغم من حركتها

(١) خطاب الحكاية، : بحث في المنهج، جيرار جنيت، ترجمة محمد معتصم وعبدالجليل الأزدي وعمر حلي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ٦٠، معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي، صفاقس، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م (ارتداد)

الظاهرة على مستوى التتابع السردي"[١]

ولعل خلو المدونة الرحلية للإمام من الارتداد الداخلي يكشف لنا عن قدرته على ترابط الأحداث، وتسلسها زمنيا تسلسلا محكما مما ينبئ عن عقلية فذة قادرة على التذكر المتعاقب بدون فجوات أو سقطات زمنية تستدعيه للرجوع إلى الخلف.

يأتي **الارتداد الخارجي** من قبيل **التعريف ببعض الأماكن** كما في قوله[٢]" وزرت مدرسة دار الحديث التي أنشأها الملك الأشرف، وفوض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين المعروف بابن الصلاح، ثم تولى مشيختها الإمامان: النووي، وتقي الدين بن السبكي، وهي التي يقول فيها ابن السبكي:

وفي دار الحـــديث لطيـــف معنـــى عـــلى بســـط لهـــا أصـــبو وآوي

عســـى أني أمـــس بحـــر وجهـــي مكانـــا مســـه قـــدم النـــواوي

وقد يستخدم **الارتداد الخارجي** بغرض **الإضاءة والتوضيح** بالكشف عن تاريخ عنصر من عناصر الحكاية، كما في ذكره سبب تسمية جامع التوبة بدمشق بهذا الاسم قائلا "وكان الجامع كما قال - ابن خلكان - خانا يعرف بابن الزنجاري، وقد جمع أسباب الملاذّ، ويجري فيه الفسوق والفجور، فقالوا للملك الأشرف: إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين، فهدمه، وعمره مسجدا جامعا، وسماه الناس: جامع التوبة؛ كأنه تاب مما كان فيه"[٣]

ولا يبعد عن هذا قوله " وزرنا بإزائه المدرسة الثعالبية التي تم بناؤها في هذه السنة، وافتتحت باحتفال رسمي يوم الإثنين ١٧ أكتوبر، وأسست هذه المدرسة لتعليم الوطنيين العلوم العقلية والنقلية، ومنها يتخرج القضاة والعدول"[٤]

يلجأ الإمام إلى **الارتداد الخارجي** على سبيل **التقصي والتتبع** كما في حديثه

(١) الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، هيثم الحاج علي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ٦٤

(٢) الرحلات، ٧٤

(٣) السابق، ٨٨

(٤) السابق، ٣٤

عن لغة أهل مالطا حين قال[١] "فإن لغة أهل هذه الجزيرة عربية محرفة، وأكثر ما يتخللها قطع من اللغة الطليانية، وإنما انساقت إليها العربية حتى استولى عليها أبو الغرانيق محمد بن الأغلب سنة ٢٥٥هـ ويشعرك بانتشار العربية وآدابها بينهم لذلك العهد: ما قصه المؤرخون من أن ملك مالطة صنع له بعض مهندسي بلده تمثال جارية يتعرف بها أوقات الصلاة، وكانت ترمي ببنادق على الصنج (قصاع الآبنوس) فقال أبو القاسم بن رمضان المالطي أحد شعرائها لعبدالله بن السمنطي المالطي، وكانت له براعة في صناعة الشعر: أجز هذا المصراع:

جاريـــــة ترمـــــي الصـــــنج بهـــــا القلـــــوب تبـــــتهج

فقال له:

كـــــأن مـــــن أحكمهـــــا إلى الســـــماء قـــــد عـــــرج

وطـــــالع الأفـــــلاك عـــــن سر الـــــبروج والـــــدرج

وكثيرا ما يلجأ الإمام إلى **الارتداد الخارجي** في معرض **التقصي والتتبع** بما يخدم غرضه العلمي، وهدفه من رحلته، فعند حديثه عن عوائد أهل الآستانة في المراسلات من تصدير بكلمة " الحمد لله " فقط، أو ترك طالع المكتوب فارغا يقول" كنت اطلعت في رحلتي إلى الجزائر سنة ١٣٢٢هـ على قصيدة تسمى (نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران) وهذه القصيدة وشرحها للشيخ محمد بن أحمد بن عبدالقادر أبو راس، ومما ذكر في هذا الشرح: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يكتب في أول الرسائل البسملة فقط، واستمر الأمر على ذلك إلى أن ولي السفاح أول ملوك بني العباس، فزاد الصلاة على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واستمر الأمر على هذا إلى أن بويع يوسف بن عبدالمؤمن، فجعل مكان البسملة الحمد لله، وعليه العمل اليوم"[٢]

ويستخدم الإمام **الارتداد الخارجي** على سبيل **المقارنة** في معرض حديثه عن حكم القراءة في الصلاة بالفارسية فيقول: " وبمناسبة ذكر اللغة الفارسية في جملة اللغات التي تدرس بها (المدرسة التجارية بدمشق) قلنا: إن للغة الفارسية مزية،

(١) الرحلات، ٤٨-٤٩

(٢) السابق، ١٢٢

ولهذا أجاز أبو حنيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ القراءة بها في الصلاة لمن عجز عن العربية، فقال لي: بل الإمام يجيز القراءة بأي لسان اتفق، ولا يختص هذا الحكم بالفارسية، وقد كنت طالعت هذه المسألة مقيدة بالفارسية في كتاب (الأحكام) لأبي بكر بن العربي، ثم أعدت النظر في بعض كتب المذهب الحنفي، فوجدت أحد الفقهاء وهو الشيخ البرادعي نص على تخصيص الحكم بالفارسية، ولعل الراجح في المذهب خلافه"[١]

ويلجأ الإمام إلى **الارتداد الخارجي** في معرض **الفأل الحسن** وترجي حفظ الله لما ينفع الناس من دور العلم ومعاهد التدريس، في سياق محادثة دارت بينه وبين أحد مدرسي المدرسة التجارية بدمشق فقال: " ومما أورده في المحادثة: أن الحريق الذي حدث بدمشق لهذه السنة، قد أحاط بساحة المدرسة من جهاتها الأربع، ولم يتناول من مبانيها فتيلا، فقلت له: ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ فوقعت لديه موقع الارتياح"[٢]

كما استخدم **الارتداد الخارجي** على سبيل **الاستدلال والاستشهاد** على أخلاق مضيفه الدكتور المالكي في منزله بدمشق، مؤكدا من خلاله أن الخلق الرفيع طبع أصيل فيه منذ سالف الأيام فيقول: " ما زلت أذكر أيام كان الدكتور المالكي تلميذا بالمدرسة السلطانية، وكنت أرى منه الجد في طلب العلم، والشجاعة الأدبية المكسوة بالحياء والأدب الرفيع، وكنت أشعر منه بإجلال ممزوج بصدق الود، حتى إذا مر على خاطري ذكريات أيام الدراسة بالمدرسة السلطانية وأنا بمصر، وجدت صورة ذلك التلميذ (عبدالوهاب المالكي) في أول ما يخطر في نفسي"[٣]

وعند **التشوق والحنين إلى الماضي فإن الارتداد الخارجي** يكون متنفس الكاتب الذي يبث فيه لواعج شوقه وأنين حنينه، فهذا كتاب من خال الإمام يلهب فيه أشواقه فيقول "كان خالنا العلامة القدوة الأستاذ الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز قد كتب لي كتابا من الأستانة بث في مطويه الشوق إلى اللقاء، وقد مضى لنا في مدة فراق فضيلته خمس عشرة سنة، فانتفض الفؤاد اشتياقا إلى زيارته المؤكدة

(١) الرحلات، ٧٦
(٢) السابق، ٧٦
(٣) السابق، ١٣٢

بواجب القربي، وحق الدروس التي كان قد ملأ أسماعنا بجواهرها الثمينة"[١]

وقد يكون **الارتداد الخارجي عرفانا بالجميل، وإعظاما له** فها هو الإمام يبلغ مجمع البحرين في قناة السويس فيهيج خاطره للمنظر مستدعيا من ذاكرته ما مدحه به أحد الفضلاء فيقول" وحق لي عندما بلغت إلى مجمع هذين البحرين أن أذكر بيتين كان العلامة البليغ صاحبنا الشيخ السيد محمد الطاهر بن عاشور قد أرسلهما إلي في بطاقة يدعوني بها إلى زيارته، حيث حل بحضرته اثنان من أولي العلم والأدب وهما:

تألقت الآداب كالبدر في السحر وقد لفظ البحران من موجها الدرر
فما لي أرى منطيقها الآن غائبا وفي مجمع البحرين لا يفقد الخضر[٢]

وقد يأتي الارتداد **للتأكيد على أهمية من يذكرهم من العلماء**، وأن لهم باعا طويلا في دنيا العلم، فيقول" ويوجد في هذه البلد مدرس آخر، وهو الشيخ عبدالمجيد، كنت في السنة الفائتة أتيت المسجد الذي يدرس فيه (المختصر الخليلي)، وقد سبقت لنا معرفته بالحاضرة، فرحب بنا، وأحسن لقاءنا، ثم سعى بنا إلى محل الدرس، فجلس عن يسارنا"[٣]

ومن هذا القبيل قوله في الشيخ عبدالحليم بن سماية من علماء الجزائر: "وكان هذا الفاضل زار الحاضرة قديما، وأقام بها نحو ثمانية أيام أخذ فيها المقولات العشر تدريسا عن الشيخ محمد بن عيسى الجزائري-رَحِمَهُ ٱللَّهُ-"[٤]

وقوله في حقه أيضا: " وغالب القضاة وعدول المملكة الجزائرية تخرجوا على يديه؛ لأنه كان درس بقسنطينة أيضا سنين متطاولة"[٥]

وفي سبيل **نقد الذات** يجد الإمام متنفسه في **الارتداد**، ففي معرض ثنائه على طريقة الشيخ بن سماية في تقرير مسائله، واقتصاره في كل فن على مسألته

(١) الرحلات، ١٠٤
(٢) السابق، ٦٨-٦٩
(٣) السابق، ٢٨
(٤) السابق، ٣٧
(٥) السابق، ٣٨

لا يتجاوزها إلى ما عداها، وعدم خلط بعضها ببعض، يتحدث عن نفسه قائلا: " وقد كنت - عافاكم الله - ممن ابتلي درسه باستجلاب المسائل المختلفة الفنون، وأتوكأ في ذلك على أدنى مناسبة، حتى أفضى الأمر إلى أن لا أتجاوز في الدرس شطر بيت من ألفية ابن مالك مثلا، ثم أدركت أنها طريقة منحرفة المزاج، عقيمة عن الإنتاج، ونرجو أن تكون توبتنا من سلوكها توبة نصوحا"[١]

هذا فيما يخص الارتداد ووظائفه الذي استخدمه الإمام في سرده لرحلاته، **كما كان للاستباق حضور على امتداد المدونة الرحلية بنوعيه التمهيدي والإعلانيّ** وهو" تصوير مستقبلي لحدث سردي سيأتي مفصلا فيما بعد، إذ يقوم الراوي باستباق الحدث الرئيسي في السرد بأحداث أولية تمهد للآتي، وتومئ للقارئ بالتنبؤ، واستشراف ما يمكن حدوثه، أو يشير الراوي بإشارة زمنية أولية تعلن صراحة عن حدث ما سوف يقع في السرد "[٢]

الاستباق التمهيدي: يظهر هذا النوع من الاستباق في" أحداث أو إشارات أو إيحاءات أولية يكشف عنها الراوي ليمهد لحدث سيأتي لاحقا، وبالتالي يعد الحدث أو الإشارة الأولية هي بمثابة استباق تمهيدي للحدث الآتي في السرد، وتعد الرواية بضمير المتكلم هي الأنسب في الاستباقات التمهيدية كونها تتيح للراوي الفرصة للتلميح بالآتي، وهو يعلم ما وقع ما قبل وبعد، وأهم ما يميز الاستباق التمهيدي هو اللايقينية، بمعنى أنه يمكن استكمال الحدث الأولي وإتمامه، أو يظل الحدث الأولي مجرد إشارات لم تكتمل زمنيا في النص"[٣] وقد استخدم الإمام الاستباق التمهيدي في معرض **توقعه لمآلات خارجية مستقبلية** كما في حديثه عن الحالة الدينية بدمشق، وحثه الحكومة على إنشاء معهد ديني حيث يقول: " ولو عزمت حكومة دمشق على إنشاء معهد ديني عربي كبير، لوجدت في علماء دمشق الكفاية، ووجدت في أوقافها متى نظمت القدرة على الإنفاق عليها بسخاء"[٤]

(١) الرحلات، ٣٨
(٢) الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٤م، ٢١١
(٣) السابق، ٢١٣
(٤) السابق، ١٣٥

وفي حديثه عن مستقبل الكلية الشرعية بدمشق بعد عقد امتحان لطلبته لأخذ الشهادة النهائية يقول: " وكانت نتيجة الامتحان مبشرة بنجاح التعليم في هذه الكلية، ومشجعة للذين يقدرون التعليم الديني قدره من رجال الحكومة على رعايتها، والعمل لتوسيع دائرتها"[١]

ولما كانت رحلات الإمام علمية دينية **فقد ينوّه في أكثر من موضع على رغبته بتناول قضية ما مستقبلا**، كما في حديثه عن مدفن رأس الحسين، والخلاف الدائر بين العلماء أفي القاهرة هو أم بعسقلان؟ يقول الإمام " ولعلنا نقص أثر هذا المطلب في مقام آخر"[٢]

وكما وعد بنشر ملخص درسه بالجامع الأموي في قوله" وسننشر ملخص هذا الدرس فيما بعد - إن شاء الله -"[٣]

وقد يجيء الاستباق في معرض الكشف عن وجهة السفر التالية كما في قوله" عزمت على أن أعرج في إيابي على الآستانة، فعمدت إلى باخرة روسية"[٤]

كما استخدم الإمام الاستباق الإعلاني والذي استطاع من خلاله أن "يضطلع بمهمة إخبارية حاسمة تطرح بشكل مباشر جدثا سيجري تفصيله فيما سيأتي غير قابل للنقص أو امتناع الحدوث"[٥] وغالبا ما يكون إعلانا عن جلسة علمية دعي إليها فضيلة الإمام إما محاضرا أو مستمعا، مما يتفق مع أهداف رحلاته العلمية الدينية، من ذلك قوله" أعلمني السيد إبراهيم بأن السيد شفيق المؤيد سيلقي محاضرة في هذه الليلة بنادي جمعية الحرية والائتلاف، فذهبنا عند وقتها المحدود"[٦]

ويأتي الاستباق في سرد الإمام ليكشف عن أماكن المحاضرات التي دعي إلى

(١) الزمن في الرواية العربية، ١٤٠
(٢) السابق، ٥٢
(٣) السابق، ١٣٤
(٤) السابق، ١٠٤
(٥) الرواية والتاريخ، نضال الشمالي، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ١٦٨.
(٦) الرحلات، ٩٩

إلقائها وموضوعاتها، كقوله" اقترح علي بعض أهل العلم من المجمع العلمي إلقاء محاضرة في بهو المحاضرات فأجبت الطلب، واخترت أن يكون موضوع المحاضرة: أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية"[١] ومنه أيضا " اقترح علي بعض طلاب العلوم الدينية إلقاء درس بالجامع الأموي، فأجبت طلبهم، وكان موضوع الدرس: تفسير قوله تعالى﴿إن هذا القرءان يهدي للتي هي أقوم﴾"[٢]

ومثله قوله "اقترح علي بعض أهل الفضل إلقاء درس وعظ للجمهور، واختاروا أن يكون في جامع باب المصلى، فأجبت طلبهم، وكان موضوع الدرس حديث مالك في الموطأ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)"[٣]

ومما ورد على سبيل الاستباق الدعوات التي توجه إليه لتحفيز طلبة العلم وشحذ هممهم فيقول" دعيت للحضور في إحدى المدارس لتفريق الشهادات على التلامذة، وكان رفيقاي في الذهاب والحضور: الشيخ عرفات، والسيد إبراهيم المستنطق بالعدلية"[٤]

ومن هذا القبيل أيضا قوله" ودعينا إلى الحضور باحتفال في مدرسة قرب الجامع الأموي أقاموه لتفريق الشهادات على تلامذتها"[٥]

وهكذا نجد الإمام قد راوح في الترتيب الزمني بين الارتداد والاستباق، ولا شك أن هذا التنويع في أساليب السرد يحقق غاية قصرت الحكاية الأولى عن تحقيقها، بجانب ما يفيده الانتقال من ماضي الحكاية إلى حاضرها ومن حاضرها إلى ماضيها من إثارة وتشويق مما يسهم في طرد السأم والملل عن القارئ، كما يحقق مضافا أدبيا للنص، على أنه مما ينبغي أن نؤكدعليه ههنا، أن جميع هذه التقنيات السردية من ارتداد واستباق إنما جاءت في المقام الأول متوافقة مع رؤية الإمام (السارد) وغرضه الأصيل من رحلاته التعليمية الدينية، وأنها جاءت منبثقة من هذه الرؤية لم تشذ عن إطارها العام.

(١) الرحلات، ١٣٤
(٢) السابق، ١٣٤
(٣) السابق، ١٣٤
(٤) السابق، ١٠٢
(٥) السابق، ٨٥

المبحث الثاني
السرعة

السرعة، والمدة، والحركة السردية، والديمومة، والإيقاع كلها مصطلحات تعني سرعة القص، ويتم تحديدها بأنها "علاقة امتداد الفترة الزمنية التي تشغلها الأحداث بامتداد الحيز النصي، وهي علاقة تتحدد بمراعاة زمن قراءة النص بالقياس مع زمن الأحداث".[١]

فسرعة السرد تختصر الزمن الحقيقي في عبارة أو جملة أو إشارة توحي بأن زمنا ما قد أنجز، وتم الإعراض عن ذكره لسبب أو لآخر.

ولتعجيل السرد يلجأ الكتاب إلى تقنيتين هما الإضمار والمجمل، أما تقنيات الإبطاء فهي الوقفة والمشهد[٢]

و يعد **الإضمار** أو الحذف أسرع الحركات السردية، إذ يعني " قفز السرد على فترة زمنية من الحكاية بحيث لا يكون لها وجود في الخطاب"[٣] وفيه يقوم الراوي بالسكوت عن الزمن الذي لم يقع ضمن إطاره أحداث تؤثر على سير النص السردي، وقد ميّز جنيت بين الإضمار المعلن الصريح، والضمني، والافتراضي من حيث الشكل[٤]

أما **المجمل** فيطلق على أحداث القصة المسرودة بشكل مختصر، فمن خلال هذه الحركة يمكن اختصار أحداث استغرقت أياما وشهورا في بضع كلمات أو بضعة سطور أو فقرات دون اللجوء إلى التفصيل[٥] فهو حكي موجز وسريع دون التعرض لتفاصيل الأحداث يقوم بتلخيصها، واختزالها في مقطع سردي صغير، وله

(١) منطق السرد" دراسات في القصة الجزائرية الحديثة"، عبدالحميد بورايو، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، ١٩٩٤م، ١٥٧
(٢) خطاب الحكاية، ١٠٨
(٣) معجم السرديات، (إضمار)
(٤) خطاب الحكاية، ١٦٢-١٦٤
(٥) معجم السرديات: (مجمل)

شكلان: مجمل أفعال، ومجمل أقوال[١]

إن نظرة فاحصة لمجلات السرد في المدونة الرحلية للإمام تكشف عن استغنائه عن ذكر بعض الأحداث، مستخدما الإضمار كتقنية من تقنيات السرد، فيطالعنا **الإضمار الصريح بنوعيه**[٢]، وهو"الحذف الذي نجد إشارات دالة عليه في ثنايا النص كأن نقول بعد عشر سنوات، خلال أسبوع"[٣] وجدنا **الإضمار محدد المدة الزمنية المسقطة** في قوله: " سافرت إلى تبسة، فوصلنا بعد مسير القطار نحو خمس ساعات"[٤]

ومنه قوله: " فقضينا في السمر ثلاث ساعات، كانت لتلك الليلة نطاقا جميلا"[٥]

وعلى هذا قوله: " بعثني ما شاهدته من إقبال العامة، واحتفالهم بدروس الوعظ أن ألقي دروسا بالجامع الأموي، فألقيت نحو اثني عشر درسا في أحاديث جامعة"[٦]

ونجد **الإضمار المبهم غير محدد المدة الزمنية المسكوت عنها** في قوله: "واجتمعنا بأحد الثقات من بلد المسيلة"[٧] ومثله قوله "ولم نلبث معه عند هذه الملاقاة إلا مدة قصيرة لأمر عارض حال بيننا وبين استطالة الجلسة"[٨]

ومن هذا القبيل أيضا قوله" فأخذنا معه أطراف محاورة أطلعتنا على ما له من النباهة التامة"[٩]

---

(١) معجم السرديات: (مجمل)
(٢) خطاب الحكاية، ١١٧-١١٨
(٣) في مناهج تحليل الخطاب السردي، عمر عيلان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٨م، ١٣٧
(٤) الرحلات، ٢٩
(٥) السابق، ٣٣
(٦) السابق، ٧٩
(٧) السابق، ٣٢
(٨) السابق، ٣٥
(٩) السابق، ٣٦

ومثله أيضا قوله" واجهت ناظم باشا، وهو الوالي بالشام في ذلك الحين، للتفاهم معه في حاجة تخص العائلة"[١]

وللإضمار الافتراضي ظهور واضح في النص الرحلي للإمام، وهذا النوع "يمكن أن نحدده من خلال غياب الإشارة الزمنية في النص من البداية، لكن يتم استحضاره عرضا عن طريق الاسترجاع، وهذا النوع من الحذف صعب الإدراك"[٢] يظهر هذا في نقلات الإمام من جزء لآخر دون الإشارة إلى ذلك، واختلاف الزمان والمكان أيضا فجأة، مما ينبئ عن حذف جزء من الأحداث أعرض الإمام عن ذكره؛ لعدم أهميته، أو لأنه لا يتوافق مع رؤية الإمام وغرضه من رحلته، من ذلك قوله في حديثه عن قسنطينة "يبلغ عدد سكان هذه المدينة نحو ٥٥ ألف نسمة، نصفهم من المسلمين، وأربعة آلاف من اليهود، والباقي من الإفرنج"[٣] ثم ينتهي الحديث ليبدأ بعدها فقرة جديدة يقول فيه" ثم التقيت بابن عمنا الشيخ الحسن، فربطنا النية على المرافقة في السفر، فتوجهنا إلى باتنة، فوصلنا في الساعة الثامنة مساء"[٤]

و يلجأ الإمام في سرده إلى **الإضمار الافتراضي** حين يقول" كنت أمر في مناهج البلد، ومما أراه مرسوما على بعض جدرانها لفظ: "إلى العلم"، ودخلت إلى جامع قرب محل الحكومة، فرأيت معلقة بإزاء محرابه كتب فيها بخط متسع: "اطلبوا العلم"[٥] فقد قطع الإمام الأحداث، وبدأ أحداثا جديدة في قوله" جاذبني السيد إبراهيم إلى البحث في الحرية"[٦]

وعلى الرغم من حضور الإضمار الصريح والافتراضي في المدونة الرحلية عند الإمام، إلا أنه أكثر من استعمال الإضمار الضمني والذي يعني " حذف مسكوت عنه في مستوى النص، وغير مصرح به، أو بمدته فهو حذف مُغفَل،

(١) الرحلات، ٨٣
(٢) في مناهج تحليل الخطاب السردي، ١٣٨
(٣) الرحلات، ٣٣
(٤) السابق، ٣٣
(٥) السابق، ١٠٢
(٦) السابق، ١٠٢

نكتشفه ونحس به من خلال القراءة"[١] والذي يمكن استخلاصه من خلال ما يبدو في النص من فجوات تدرك بتتبع التعاقب الزمني للأحداث أو استمرارها من مثل قوله: "تفضل علي بالزيارة في هذا المساء السيد شرف أحد الأعيان في عائلة أشراف مكة المحترمة، فمثل لنا بعلو همته، وسلاسة أخلاقه كيف تكون همم بني هاشم وآدابهم، ثم أخذ بيدي حتى امتطينا عربة سارت بنا لإجابة دعوة السيد الشريف بن حمودة"[٢] فالأحداث مقطوعة بين الحديث عن أخلاق مضيفه، وأخذه بيده حتى العربة التي تقلهما إلى مكان آخر.

ويستخدم الإمام **الإضمار الضمني** في قوله أيضا: " قدمت على مرسى الإسكندرية ضحوة يوم الأربعاء، فنزلنا منزلا ألقينا فيه رحلنا، وبعد أن طفئت حرارة الهاجرة، خرجت صحبة رفيق يعرف شعاب المدينة، إلى أن وافينا باب مسجد، فجزته لأداء صلاة الظهر"[٣] فبين إلقاء الرحل وانطفاء الهاجرة، والسير بصحبة الرفيق وموافاة باب المسجد فجوات زمنية خبأت في رحمها الكثير من الأحداث.

وقد يلجأ الإمام إلى المجمل عندما يلخص أقوالا أو أفعالا لا حاجة لتفصيلها مكتفيا بالمرور السريع عليها، فمن مجمل الأفعال قوله في مدينة أهراس "تطوفنا في أغلب مناهجها المتسعة، وفسحنا الخاطر في بناءاتها المتناسبة، ولعدم كبر مساحتها يمكن الإحاطة بها في مدة وجيزة"[٤] فقد لخصت هذه الأفعال الكثير مما قام به الإمام في تطوافه، ما ذا رأى؟ ومن قابل؟ ما الذي سرّه؟ وما الذي كدّر خاطره؟

ومنها قوله في قسنطينة: "وأعدنا الاستطلاع على بعض معالمها الدينية، وآثارها القديمة والحديثة"[٥] فلم يحدد لنا ماهيّة هذه الآثار، وعصورها، ووقعها على نفسه.

(١) في مناهج تحليل الخطاب السردي، ١٣٧
(٢) الرحلات، ٦٧
(٣) السابق، ٤٩
(٤) السابق، ٢٧
(٥) السابق، ٣١

وإلى جانب المجمل الفعلي فقد استخدم الإمام المجمل القوليّ كقوله: "شهدت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر، والخطيب من أبناء الشيخ السقا صاحب الخطب الشهيرة، فكان موضوع الخطبة: فضل ليلة النصف من شعبان"[(١)]

ومنه قوله: " حضرنا حفلة وداع التلامذة: محيي الدين القضماني، وسعدي عرابي، وسعيد الرشاش، حين عزموا على الرحلة للتعلم، فافتتح السيد محمد علي بخطاب بيّن فيه الغرض من الاحتفال، وتلاه الأمير عارف الشهابي بخطبة أتى فيها على فوائد البعثات العلمية، ثم خطب تلميذ يقال له مردم في التعليم بمدارس سويسرة، ثم خطب السيد مصطفى أخو الأمير عارف في الزراعة ومنافعها"[(٢)]وقد اكتفى الإمام بذكر موضوعات الخطب دون ما قيل فيها مستخدما تقنيات السرد المعجلة للنص السردي.

على كل، فقد سجل الإمام في النص الرحلي كل ما هو جدير بالكتابة والرصد من خلال رؤيته الذاتية العلمية والدينية، مستغنيا عن ذكر بعض الأحداث التي لا أهمية لها من وجهة نظره، معتمدا على أساليب السرد في الحذف، من إضمار بأنواعه الثلاثة (الضمني، والصريح، والافتراضي)، ومجمل بنوعيه (الفعلي، والقولي) على اختلاف درجة الظهور في المدونة الرحلية على امتدادها.

فإذا ما تركنا المعجّلات إلى المبطئات، نجد الإمام قد حاول بها نقل الواقع كما هو، أو إيقافه؛ للتعليق أو التفسير عن طريق تقنيتين للسرد هما المشهد، والوقفة.

فالمشهد الذي يطلق على " مواضع القص المفصل الذي قد ينطوي على الوصف المبأر أو ألحوار"[(٣)]حاضر وبقوة في المدونة الرحلية للإمام وبخاصة من خلال الحوار نجدها في قوله: " فالتفت إلى ذلك الفاضل، وقلت له: هل لكم درس في هاته الساعة؟ فقال: نعم، درس في التوحيد، ولكن نريد أن نعوضه بمسامرة

(١) الرحلات، ٥٣
(٢) السابق، ٨٣-٨٤
(٣) معجم السرديات، (مشهد)

علمية معكم، فجرت على بساط المسامرة مسائل بعضها في العبادة، وبعضها في غير ذلك"[1] ويتجلى المشهد الحواري أيضا في قوله" لقيت رجلا عليه زيُّ علماء الأزهر، وفي يده سِفر، فقلت له: ما هذا الكتاب الذي تنظر فيه؟ فقال لي: ديوان شاعر يقال له مسلم بن الوليد، فقلت له: أول من أفسد الشعر العربي أبو تمام، ومسلم بن الوليد، فقال لي: لعلك صاحب أدب، فقلت له: وفي بعض الأحيان يجيش يه صدري، فانعقد التعارف بيننا، واستمرت المرافقة إلى الآستانة"[2]

كما نجد **المشهد الوصفيّ** حاضرا في كتابات الإمام الرحلية حين يقول: " ثم عدنا إلى الباخرة حيث أزف رحيلها، وجعلت أنظر إلى زوارقها المزخرفة وهي تحوم حولنا واردة وصادرة، فوقع بصري على زورق يطوف به على جوانب السفينة سائل مقعد، فأراني إحدى رجليه نحيفة ملتوية، فقذفت له مسكوكا، فالتقطه وهو يقول: بالسلامة بالسلامة. وحيث لم يتعرض لي قبل هذا سائل في زورق قلت:

عهدت الذي يسعى على متن زورق إلى الرزق يدلي نحوه شرك الصيد
وذا قانص في اليم يرمي إلى العلا حبالة أقوال فتظفر بالقصد"[3]

ومن المشهد الوصفي أيضا قوله في وصف علماء دمشق: " وقد تحلى علماء دمشق بهذا الخلق العالي، وهو حضورهم بدروس الحديث من تلقاء أنفسهم، استمدادا لبركة الحديث، ومجاملة لمن انتصب لتدريسه"[4]

ومن هذا القبيل قوله: " زرت مسجدها الشهير بالجامع الأموي، وشاهدت من تنميقه واتساع أركانه ما يعز نظيره فيما رأيت من المساجد الجامعة"[5]

وقد يورد الإمام المشهد وصفيا حواريا في آن واحد من مثل قوله: " وفي أثناء المطاف قال لي رفيقنا المذكور: إني أعرف هنا رجلا من أهل العلم والأدب، فقلت: تلك الضالة التي ننشدها في مثل هاته الليلة، اسع بنا إلى أن نروح الخواطر

(١) الرحلات، ٢٧
(٢) السابق، ١٠٤
(٣) السابق، ٤٩
(٤) السابق، ٨٠
(٥) السابق، ٧٢

بأسماره. فمضينا حتى انتهينا إلى محل معد للتجارة، فوجدنا جماعة جالسين على شكل نصف دائرة، فلما رأونا انتفضوا قائمين، وعلى وجوههم نضرة البشر والابتهاج، وعلى تحيتهم طلاوة الأدب واللطافة، فكان ذلك براعة استهلال لما ينبغي ملاحظته في ذلك المنتدى"[١]

ولم يقف استخدام الإمام للمبطئات السردية على المشهد فحسب، بل كان للوقفة حضور بارز في هذه النصوص الرحلية، فكثيرا ما يوقف الإمام السرد من أجل **التعليق** من مثل قوله في الثناء على الشيخ عبدالقادر المجاوي" ولهذا الشيخ أيضا خلق عظيم نحمده عليه، وهو سلوكه في معاملة التلامذة طريقا وسطا، لا ينحط عن مكانة عزة النفس، ولا يرتفع عن ساحة التواضع، تحمله عواطف النسب العلمي على العناية بشؤونهم، وبذل الوسع في قضاء مآربهم، ويصُّده علو الهمة عن مجاراتهم فيما يزري بخطته الشريفة.

أأغرسه عزّا وأجنيه ذلّة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما[٢]

ويوقف الإمام السرد معلقاً، بعد محاورة علمية في حكم العلوم الرياضية والطبيعية في نظر الإسلام، فيقول: " فهذا التقرير من إمام عرف شعاب هذه العلوم، بعد أن رسخ في العلم بمقاصد الشريعة الإسلامية، يشهد شهادة عادلة بأن الإسلام يسع صدره لكل ما يندرج في حقيقة العلم مالم يتحقق ضرره، كعلم السحر"[٣]

ويستخدم الإمام الوقفة للتعليق على جامع بايزيد بإستانبول، فيقول: " ثم زرت جامع بايزيد، وشهدت به دروسا أيضا باللسان التركي، ويقال: إن الشيخ الفناري الذي كان قاضيا بالآستانة، عاتب السلطان بايزيد على عدم حضوره الصلاة في الجامع، فأنشأ هذا الجامع؛ ليحرز فيه صلاة الجماعة"[٤]

ويلجأ الإمام إلى الوقفة السردية، ناقلا معلومة من كتاب ما؛ لعرض

(١) الرحلات، ٣٣
(٢) السابق، ٣٨
(٣) السابق، ٧٧
(٤) السابق، ١١١

القضية، والاستزادة في الإيضاح، من مثل قوله: " ومما أدرجناه في المحاضرة: قول القرافي في فروقه: قد يغمض على الفقيه والحاكم الحق في كثير من المسائل بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العليّة أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم"[١]

ومن هذا القبيل "وتجاذبنا خلاصة ما حققه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال عند بحثه عن علم الطبيعيات، ونصه: (أما علم الطبيعيات، فهو بحث عن أجسام العالم: السماوات، وكواكبها، وما تحتها من الأجسام المفردة؛ كالماء والهواء والتراب والنار، ومن الأجسام المركبة؛ كالحيوان والنبات...)"[٢]

وقد يستخدم الوقفة كتكنيك سردي لتقديم شرح مفصل لقضية أثيرت في حضوره، من هذا القبيل قوله" ودفعتنا المناسبة إلى الكلام على العمل بالحديث الضعيف، فقلنا: قال الفقهاء: إن الحديث الضعيف لا يعمل به في أحكام الحلال والحرام مطلقا، ويعمل به في فضائل الأعمال بثلاثة شروط: أن لا يكون شديد الضعف، ولا يعتقد العامة نبوته؛ لئلا ينسب إلى النبي مالم يقله، وأن يندرج بمعناه تحت قاعدة كلية من قواعد الشريعة"[٣]

وقد يوقف الإمام السرد لتقرير درس، كالدرس الذي ألقاه في الجامع الأزهر نزولا على رغبة طلبة العلم، والذي كان في قوله تعالى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ التوبة: ١٢٢إلى آخر الآية، والذي أوقف السرد قرابة العشر صفحات ليقرر الدرس، وقد أبان فضيلته الغاية من ذلك بقوله" ونودع في هذه الخلاصة جملة من المباحث التي أوردناها في تفسير الآية، عسى أن تكون أنظار بعض القارئين قد طمحت إلى الإلمام بمقاصدها"[٤]

ويلجأ الإمام إلى الوقفة لذكر مؤَلَّف نادر كما في قوله" وأطلعني أحد الأدباء في مجلة شرقية على رسالة للخليل بن أحمد في تفسير حروف الهجاء عند

(١) الرحلات، ٧٦
(٢) السابق، ٧٧
(٣) السابق، ٤٣
(٤) السابق، ٥٨

العرب نقلت من مجموعة في العراق، فأنشدته أبياتا من قصيدة لأبي عبدالله الهواري الأندلسي في تسمية هذه الحروف كنت ظفرت بها من مجموعة في رحلتي للجزائر سنة ١٣٢١هـ، وحيث كانت هذه الرسالة من التآليف النادرة، وتشتمل على بعض معان لم نعثر عليها في كتاب القاموس، ولا في لسان العرب، ننقل ملخصها هنا، وإليك التلخيص"[١]فذكر التلخيص، ثم أتبعه بذكر مؤلفات أخرى جاءت في نفس الغرض، وأماكن وجودها، ثم قال " أما قصيدة أبي عبدالله الهواري، فنقتطف منها أبياتا؛ ليظهر أن هذه الرسالة كالشرح لها، وإليك المقتطف"[٢] مستغرقا ما يزيد عن صفحتين.

وقد تأتي الوقفة لبيان معنى كلمة أجنبية كقوله: " والكلمة الشائعة في معنى الاستراحة من التعليم عند كثير من أهل الجزائر، ولا سيما المتخرجين من المدارس هي لفظ فكَّانس، وهي حرف فرنسوي"[٣]

وقد يستخدم الإمام الوقفة لبيان معنى كلمة عربية اقتضاها سياق الحديث، ومنها قوله: " وصحبنا أحد الفضلاء فذكر لفظ "مجلة"، فاستنبأنا عن معناه لغة، فسقنا إليه عبارة "القاموس": مجلة- بالفتح-: الصحيفة فيها الحكمة، أوكل كتاب"[٤]

ومن هذا القبيل قوله: "وجرى في المحادثة لفظة: صلاعة، على معنى: الاستراحة من التعليم، فقلنا: هي كلمة في أصلها عربية، قال في القاموس: صلاع الشمس؛ ككتاب: حرُّها. وأيام الاستراحة هي أوقات الحر غالبا."[٥]

على أية حال، فكثيرا ما يوقف الإمام السرد لشرح مسألة، أو تقرير درس، أو التعليق على قضية، أو بيان معنى كلمة عربية كانت أو أجنبية، إلا أنه يصدر في كل ذلك عن رؤية تتفق مع غرضه من الرحلة، وتنبثق عن عاطفته العلمية

(١) الرحلات، ٩٣
(٢) السابق، ٩٣
(٣) السابق، ٥٤
(٤) السابق، ٣٦
(٥) السابق، ٥٤

الدينية، فرحلات الإمام تعد سجلا حافلا بمعاهد التعليم والمكتبات وأماكنها، وأسماء العلماء وأوصافهم، وأهم المحاضرات والدروس العلمية التي دارت في حضرته، أو قام فضيلته بإلقائها، وأهم التآليف النادرة التي وقعت بين يديه، كل ذلك مما حرص الإمام على توثيقه وتدوينه. كما ينبغي الإشارة أن الوقفات قد تعددت وتنوعت أغراضها، وتباينت أطوالها، ما بين قصيرة، ومتوسطة الطول، وأخرى استحقت لطولها أن تفرد في صفحات عدة.

المبحث الثالث

الوصف

يعد الوصف من أهم الآليات الفاعلة في بناء معمار النص السردي، فعن طريقه نستطيع التعريف بالموصوف، ونقل صورته، والتعبير عن انفعاله إزاء موقف ما، فهو" ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"[١] كما قال قدامة بن جعفر. وجاء في معجم السرديات أن الوصف " نشاط فني يُمَثِّل باللغة الأشياءَ والأشخاصَ والأمكنة وغيرها"[٢]

والعلاقة بين الوصف والسرد علاقة تكاملية، إذ "لا يمكن أن نصف دون أن نسرد، ولا أن نسرد دون أن نصف"[٣] وتتفاوت نسبة توظيف الوصف إلى السرد حسب حاجة السرد له، واستدعاء كل منهما للآخر، ليتحدا في النهاية في إضفاء الجمالية والفنية والخصوصية التي تتأتى "من التداخل بين الوصف والسرد، فيما يمكن أن نسميه بالصورة السردية، وهي الصورة التي تعرض الأشياء المتحركة، أما الصورة الوصفية فهي التي تعرض الأشياء في سكونها"[٤] ومن خلال هيمنة أحد المكونين- الوصف أو السرد - تتحدد نوعية النص السردي، فالرواية مثلا يهيمن عليها السرد؛ "لأنه يؤطر الوصف ويستوعبه، لذلك يغدو البعد الزماني فيها يحتل فيها مكانة أساسية بقياسه بالمكان، أما الرحلة فيمكن الذهاب - الآن - إلى أنها خطاب وصفي؛ لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معين"[٥]

ومن هذا المنطلق تصبح الرحلة " جنسا أدبيا وصفيا بامتياز، خاصة أن الوصف في الرحلة لا يعد خادما للسرد بل ندا له"[٦]

---

(١) نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٠

(٢) معجم السرديات (وصف)

(٣) تحليل الخطاب الأدبي، إبراهيم صحراوي، الطبعة الأولى، الآفاق، الجزائر، ١٩٩٩م، ١٠١

(٤) بناء الرواية"دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ"، سيزا قاسم، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٠م، ٨٣

(٥) السرد العربي، ١٩٦

(٦) الرحلة المغربية في القرن التاسع: عشرمستويات السرد، عبدالرحيم مودن، دار السويدي،

وما دام للوصف هذه الأهمية في النصوص الرحلية، فإنه يجدر بنا إلقاء الضوء على الوصف في رحلات الإمام، والوقوف على مواطن الوصف فيها، ومعلنات حده، وبنيته، وأهم ألفاظه.

مواطن الوصف في رحلات الإمام:

إذا ما أجلنا النظر في النص الرحلي للإمام نجد الوصف يساير السرد في بنائه الفني، فهما يتناوبان ويتداخلان في تكوين هذا الخطاب دون أن يطمس أحدهما هوية الآخر أو يتوارى خلفه.

ومن هنا تحتَّم عليَّ إلقاء الضوء على بعض المقاطع الوصفية في هذه النصوص وخاصة التي" تظهر في شكل وحدة أسلوبية متمتعة باستقلال نسبي"[١] للوقوف على مواطنه، ووظائفه، وأهم أنواعه.

ومن يقرأ النصوص الرحلية للإمام يضع يده على مواطن عديدة يشغلها الوصف، ولم تنفرد مواطن دون غيرها بالوصف، فلا نستطيع القول إننا نستطيع أن نتتبع الوصف في أماكن بعينها في النص الرحلي، وإنما جاء ممتدا على طوله دون اختصاص لبعض الأماكن دون بعضها الآخر، كما جاء موافقا لأغراض رحلته، وأهدافها المعلنة، غض فيه الطرف عن المعلومات الجغرافية والسياسية والاجتماعية، فقد كان اهتمامه منصبا على الأغراض الدينية والعلمية، الأمر الذي جعله عينا فاحصة لاقطة لكل ما يتواءم مع أهدافه، التي جعلها نصب عينيه منذ أول انطلاقة لرحلاته، يقول الإمام في مطلع تدوينه للرحلة الجزائرية" كنت أسعفت فيما سلف من الزمان بإجراء سياحة في أطراف المملكة الجزائرية، وبقيت النفس مستشرفة إلى إعادتها تارة أخرى إلى مدينة الجزائر نفسها؛ لنكون على بينة من مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية، وجلية من أمر أخلاق أهلها الغالبة، وعاداتها العامة؛ فإن لسان العيان أفصح من لسان البيان"[٢]

=
أبوظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ٢٧١

(١) بحوث في السرد العربي، محمد نجيب العمامي، مكتبة علاء الدين، دار نهى، صفاقس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ١٨

(٢) الرحلات، ٢٦

وعلى الرغم من كثرة مواطن الوصف على امتداد النص الرحلي؛ إلا أنه يمكن ملاحظة بعض الأماكن التي يتواجد فيها، فغالبا ما نجد المقدمات، وفواتح اليوم الأول أهم هذه المواطن، كما في فاتحة حديثه عن رحلته إلى (تبسة) أثناء سرده لأحداث اليوم الأول وجدناه يقول" وبعد أن أزحنا بالاستراحة ما سامنا من عناء السفر، خرجنا نتدرج بأنحاء البلاد إلى أن استقصينا غالب مناهجها جولانا، وألفيناها منفوضة الجراب من آثار التعليم، سوى أن بعض المتخرجين بالجامع الأعظم من أهالي الجريد يجاور بها نحو خمسة أشهر في السنة، يلقي فيها دروسا من الكتب الابتدائية"(١)

وتعد بدايات الفقرات أحد مواطن الوصف في هذه النصوص الرحلية، ففي مفتتح حديثه عن زيارته للجامع الأموي يقول" زرت مسجدها الشهير بالجامع الأموي، وشاهدت من تنميقه واتساع أركانه ما يعز نظيره فيما رأيت من المساجد الجامعة، ولم نلف به لذلك الحين سوى درسين: أحدهما في الوعظ[...] وثانيهما: في الفقه المالكي[...] شهدت به صلاة الجمعة، فكان مع هذه السعة في الطول والعرض غاصا بالمصلين، وحدثني الشيخ سعيد الجزائري، وقد التقيت به عقب الصلاة: أن بعض الباحثين قدر المصلين به في مثل هذا اليوم بحساب محرر، فبلغ عددهم سبعة آلاف.أما خطباؤه فإنهم يلقون الخطب بلهجة صادعة وأسلوب مؤثر، ولا ترى بيد واحد منهم عند الخطبة ورقة، فهم يمثلون هيئة الخطابة عند العرب، ويحفظون أثرا من آثار الفصاحة، بمعنى طلاقة اللسان، والنطق بالحروف متمكنة من مخارجها"(٢)

وكثيرا ما تصدر الفقرات بوصف يمهد للأحداث من خلاله كقول الإمام: "زيارة القبور: ومن عوائد الشام أنك ترى زائرات القبور يحملن غصونا ذات أوراق طرية ليضعنها على القبور، باعتقاد أنها تنفع الموتى كما تنفعهم الصدقات"(٣)

ومن هذا الباب قول الإمام" عطلة يوم الثلاثاء: اتخذ أهل الآستانة يوم الثلاثاء يوم استراحة من التعليم زيادة على يوم الجمعة، ويذكرون في سبب هذا:

(١) الرحلات، ٢٩
(٢) السابق، ٧٢
(٣) السابق، ٩٠-٩١

أن الشيخ الفنري كان يترك الدراسة به؛ ليشتغل التلامذة بالنسخ، فبقيت البطالة فيه إلى اليوم عادة مستمرة"[١]

ولا يقتصر الوصف على هذه المواطن فحسب من السرد، فالوصف شائع في جميع المواطن السردية في نصوص الإمام الرحلية.

فإلى جانب هذه المواضع يمكننا الاهتداء إلى المقاطع الوصفية من خلال بعض العبارات الممهدة والمفتتحة للمقاطع الوصفية والخاتمة لها، والتي تعرف بمعلنات حدّي المقطع الوصفي[٢]

معلنات حدّي المقطع الوصفي في نصوص الإمام الرحلية:

يظهر المقطع الوصفي في " شكل وحدة أسلوبية متمتعة باستقلال نسبي، ومزودة ببعض العلامات التي تعلن للقارئ أن الملفوظ سيندرج أو قد اندرج في مقطع غلب عليه الوصف، وأن عقد قراءة جديد سيقوم في النص- أو قام فيه بعد- وأن القارئ سيكون -أو كان- في وضع مخاطبة جديد ذي أفق انتظار جديد أيضا"[٣]

ومن هنا فقد حاول النقاد تتبع المقاطع الوصفية؛ للوقوف على أهم المواطن التي ينبع منها المقطع الوصفي والذي قد يكون" ظهور اسم جديد- سواء دل على مكان أو شخص أو شئ أو ترتيب عددي- يجعل المروي له ينتظر أن يوصف سواء طال الوصف فشكل مقطعا أو قصر فكان بضع صفات، وسواء تلا الوصف الاسم مباشرة أو تأخر قليلا أو كثيرا"[٤]

ومن هذه المقاطع الوصفية التي صدرت بظهور اسم جديد قول الإمام "زيارة مقام ابن العربي: وقصدت إلى مقام الأستاذ الشهير الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه في بناءات تسمى الصالحية تتصل بطرف دمشق، وقرأت على

(١) الرحلات، ١٢١-١٢٢
(٢) الوصف في النص السردي، ٦٤
(٣) بحوث في السرد العربي، ١٨
(٤) السابق، ٢٠

ضريحه رسما به بيتان يحتوي ثانيهما على تاريخ وفاته[١] وهو:

إن سألتم متى توفي حميدا قلت أرخت: مات قطب همام

ويرى الزائر بجانب منه ضريح الأمير عبد القادر الجزائري، قد رسمت عليه أربعة أبيات تشتمل على تاريخ وفاته[٢]، أولها:

لله أفق صار مشرق دارتي قمرين هلّا من بلاد المغرب

وآخرها:

من نال مع أعلى رفيق أرِّخوا أزكى مقامات الشهود الأقرب

وكان لهذا الأمير صبابة بفتوحات الشيخ ابن عربي حتى إنه أرسل عالمين من علماء دمشق إلى قونية لتصحيح نسخة الفتوحات ومقابلتها على النسخة التي حفظت هناك، وعليها خط يد المؤلف نفسه."[٣]

ومن قبيل هذه المقاطع الوصفية، معاني الكلمات الواردة في المحادثات، وعلى هذا جاء قول الإمام" ومما جاء في خاتمة المجلس لفظ: منطاد، فقلنا: هو

(١) بحساب الجُمَّلِ وهو فن أدبي شاع في الأدب المصري، ويعني استخدام حروف الهجاء الأبجدية (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ) للدلالة على الأعداد. انظر: الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، محمد سيد كيلاني، دار الفرجاني، القاهرة، طرابلس، لندن، ٦٨

وعلى هذا يكون عجز البيت: مات قطب همام، مات= ٤٠+١+٤٠٠=٤٤١، قطب=١٠٠+٩+٢=١١١، همام=٥+٤٠+١+٤٠=٨٦، إذن فالمجموع٤٤١+١١١+٨٦=٦٣٨ وهي سنة وفاة ابن العربي الهجرية

(٢) بحساب الجُمَّل، وعلى هذا يكون عجز البيت الأخير أزكى مقامات الشهود الأقرب،

أزكى= ١+٧+٢٠+١٠=٣٨،

مقامات=٤٠+١٠٠+١+٤٠+١+٤٠٠= ٥٨٢،

الشهود= ١+٣٠+٣٠٠+٥+٦+٤=٣٤٧،

الأقرب=١+٣٠+١+١٠٠+٢٠٠+٢=٣٣٤، إذن فالمجموع= ٣٨+٥٨٢+٣٤٧+٣٣٤=١٣٠١هـ وهي السنة الهجرية التي توفي فيها الأمير عبد القادر.

(٣) الرحلات، ٧٣-٧٤

الآلة التي تطير في الهواء المسماة بالبالون، وهو لفظ عربي، في القاموس: الانطياد: الارتفاع في الهواء صعدا، والمنطاد: البناء المرتفع"[١]

ومنها **أوصاف العلماء الذين يرد ذكرهم في ثنايا النصوص**، سواء طالت هذه المقاطع أم قصرت، يقول عن زيارته لقسنطينة" والتقينا بأشهر علمائها الشيخ حمدان بن الونيسي الذي كان زار الحاضرة منذ عهد قريب، والعالم الشيخ أحمد بن الحبيبات، وهو رجل عليه سمة أهل الخير والصلاح"[٢]

ومن هذا الباب قوله أيضا " ومما أعجبت به في دمشق: جماعة من طلاب العلم يتلقون العلم عن فضيلة الأستاذ الشيخ حسن الميداني بمدرسة جامع منجك، ويهتدون بهديه، والأستاذ عالم مستنير الفكر، مستقيم على الآداب السامية، فصيح اللسان، وكثيرا ما دارت بيننا وبينه مذكرات في مسائل دينية وعربية، فنلقى منه ما ينبغي أن يتحلى به أهل العلم من جودة النظر، وحسن الأناة، والتواضع والإنصاف"[٣]

ومما جاء من هذا القبيل، قول الإمام "جمعت هذه الباخرة طائفة عظيمة من أهل العلم، ما بين أساتذة وتلامذة، فحصل لنا من محاضرتهم ولطفهم ما يكشف ضجر الاغتراب، ويسلي النفس عن معاهد أنسها، فمن هؤلاء الفضلاء: الشيخ راغب التميمي، وابنه السيد زكي الدين، والسيد عبدالهادي من بلد الخليل، والسيد علي بن صالح من بلد إحدى القرى السورية، وهذان الأديبان استقيا معارفهما من الأزهر، ثم من مدارس الآستانة، ولهما ذوق جيد في الشعر العربي، وفيما يصحبهما من الكتب: ديوان المتنبي، فكانا كثيرا ما ينشدان من قصائده، ويجري بيننا التفاهم في بعض أبياتها"[٤]

ومن هذا الباب جاء قول الإمام "وممن لقيتهم على جانب عظيم من الاهتمام بالحالة الدينية في الشرق، وتتبع ما يظهر في مصر وغيرها من الآراء

(١) الرحلات، ٢٨
(٢) السابق، ٣١
(٣) السابق، ١٣٧
(٤) السابق، ١٠٤- ١٠٥

الدينية: حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ جميل الشطي مفتي الحنابلة، ولهذا المفتي الفاضل مواقف محمودة تشهد بأنه قائم على تاريخ علماء الإسلام الذين لا يرون الوظيفة إلا وسيلة لخدمة الشريعة، ولا ينبغي أن تكون كمامة على فم العالم تمنعه من أن يصدع بالحق، أو تفعل به ما تفعل أم الخبائث، فتهبط به إلى أن يقول غير الحق"[١]

وقد تجيء بعض المقاطع الوصفية في ذكر أوصاف الأماكن التي نزل بها الإمام كقوله في قصر البحر: " فقصدنا إلى خان يسمى قصر البحر: وهذا القصر من أجمل المنازل من حيث التنسيق والموقع، ومن أهم ما روعي في مرافقه: بيت فسيح فيه زرابي مبثوثة لأداء الصلوات، وطالعت في أحد جدران مقعده العام معلقة، رسمت بها قصيدة للشاعر الشهير السيد معروف الرصافي في وصف هذا القصر يقول في طالعها:

لعمـــرك إن قصـــر البحـــر قصـــر بـــه يســـلو مواطنـــه الغريـــب
وتمتلـــئ العيـــون بـــه ابتهاجـــا إذا نظـــرت وتنشـــرح القلـــوب[٢]

وقد تجئ بعض المقاطع الوصفية في ذكر أوصاف المجتمعات التي نزل بها الإمام فيقول عن زيارته لتبسة " وبعد أن أزحنا بالاستراحة ما سامنا من عناء السفر، خرجنا نتدرج بأنحاء البلاد إلى أن استقصينا أغلب مناهجها جولانا، وألفيناها منفوضة الجراب من آثار التعليم، سوى أن بعض المتخرجين بالجامع الأعظم من أهالي الجريد يجاور بها خمسة أشهر في السنة، يلقي فيها دروسا من الكتب الابتدائية"[٣]

وعلى هذا جاء قول الإمام" وكانت إقامتي بمنزل شقيقنا السيد زين العابدين حسين، المقيم بحي الميدان، وقد عرف أهل هذا الحي الكبير بالمحافظة على الأخلاق الإسلامية، كما عرف بالحزم والأمانة في التجارة"[٤]

(١) الرحلات، ١٣٨
(٢) السابق، ٩٨-٩٩
(٣) السابق، ٢٩
(٤) السابق، ١٣٩

وقد يكون المعلن عن بداية الوصف زوال مانع الرؤية من بعد المسافة، والوفود على بلاد جديدة، كوصف الإمام لعاصمة الجزائر عند قدومه عليها" وفي الساعة الثامنة أشرفنا على عاصمة الجزائر فتراءت لنا مصابيح أنوارها بمنظر أنيق، وأشكال متناسقة، وذلك لأن المدينة قائمة على أكمة مرتفعة يبتدئ العمران من أعلاها، ثم يمتد متدليا إلى حافة البحر، فيبصر الداخل عند استقبال شوارعها المنورة، وهي طبقات بعضها فوق بعض، رونقا مليحا"[١]

ومنها قوله " ولما أشرفنا على بلد أزمير وواجهتنا بمنظرها الهلالي، أنشأت له:

لأزمـــير شـــكل كـــالهلال مقـــوس ولكـن لـه في منتهـى البحـر ألـوان
وأحسبه الشكل الـذي اختطـف النهـى لقوم فقـالوا في الكواكـب سـكان"[٢]

وقد يكون المعلن عن بداية الوصف حلول الراوي في فضاء الموصوف كوصف الإمام للمنشية بقوله" التقينا بالسيد حسن بن عياد من أهالي جربة القاطنين بتلك المدينة، وذهب بنا إلى ناد حافل يقال له المنشية، فقضينا به جانبا من الليل في أسمار مؤنسة، واستطلاع على مجامع متنوعة، وهيئات من الملابس المختلفة، فإن هذا النادي يأوي إليه السائحون من بلاد الشرق، ولا تتجافى عنه الطبقة العالية من الأهالي، ومما يذود عن جفنك الكرى هنا: أن الباعة يخترقون الصفوف والمجامع، وهم يصرخون بأسمائها، وأيدي القوم تتلقفها واحدة عقب واحدة"[٣]

ومن هذا القبيل قوله في وصف نابلس" كنت أمر في مناهج البلد، ومما أراه مرسوما على بعض جدرانها لفظ: إلى العلم، ودخلت إلى جامع قرب محبل الحكومة، فرأيت معلقة بإزاء محرابه كتب فيها بخط متسع: اطلبوا العلم"[٤]

ومنه قول الإمام" زرت مسجدها الشهير بالجامع الأموي، وشاهدت من

(١) الرحلات، ٣٤
(٢) السابق، ١٢٦
(٣) السابق، ٥٠
(٤) السابق، ١٠٢

تنميقه واتساع أركانه ما يعز نظيره فيما رأيت من المساجد الجامعة"[١]

فإذا ما نظرنا للألفاظ، وجدنا ألفاظا يغلب استخدامها عند التمهيد للمقاطع الوصفية، كألفاظ الإصباح، كقول الإمام" قضينا ليلتنا على متن البحر، وانحدرنا صباحا إلى المدينة التي هي مقر حكومتها، وتسمى فاليتا، فتجولنا في مناهجها المتناسقة"[٢]

ومنها قوله" سافرت صباح يوم الأحد إلى بور سعيد، ومررنا على جانب من فتحة قناة السويس التي وصلت البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط"[٣]

ومنها ألفاظ الحركة والتجوال، كقول الإمام" فتوجهنا إلى باتنة، فوصلنا في الساعة الثامنة مساء، وبعد أن وضعنا أوزار الأتعاب، تجولنا في شوارعها، فإذا هي فسيحة العرض، متناسقة البناء، منورة بالكهرباء"[٤]

وفي حديثه عن مدينة أهراس يقول الإمام" وبعد أن نفضت نقع ما علق بنا من النصب، تطوفنا في أغلب مناهجها المتسعة، وفسحنا الخاطر في بناءاتها المتناسبة، ولعدم كبر مساحتها يمكن الإحاطة بها في مدة وجيزة"[٥]

ومنها الفعل الماضي الناقص كان، كقوله" دعانا الشيخ عبدالحليم بن سماية إلى زورة محله في الساعة الخامسة مساء، وكان منزله في أقصى المدينة وأعلاها، فصعدنا إليه على السيارة الكهربائية، سارت بنا في خطها الحديدي نحو ٢٠ دقيقة"[٦]

ومن هذا القبيل قوله" وسامرنا بدكان السيد علي بن الحدادالشيخ مصطفى بن الطالب أحد علماء تلمسان، والمتولي خطة الفتوى بصور الغزلان، وكان له ميل شديد إلى المباحثات العلمية، ويحب التطلع على علل المسائل، وربما هجم

(١) الرحلات، ٧٢
(٢) السابق، ٤٨
(٣) السابق، ٦٨
(٤) السابق، ٣٣
(٥) السابق، ٢٧
(٦) السابق، ٣٦

على إبداء ما يلوح له من ذلك"[١]

ومن هذا قوله" فانشق صدري أسفا لأحد المعلمين، إذ كان لا يضع العصا من يده، ولا يفتر أن يقرع بها جنوب الأطفال وظهورهم بما ملكت يده من القوة، وربما قفز الصبي آبقا من وجع الضرب الذي لا يستطيع له صبرا فيثب في أثره بخطوات سريعة، ويجلده بالمقرعة جلدا قاسيا"[٢]

وتأتي الضمائر (هو)، (هي)، (هم) من المهدات للمقاطع الوصفية، كما في قول الإمام" ودعانا السيد مصطفى بن الأكحل إلى منزله، وهو من أفاضل القوم، لا يحل بالبلد غريب، ولا سيما إن كان من أهل العلم، إلا وأكرم مثواه، وأحسن ضيافته"[٣]

وكنت أزور مكتبة الملك الظاهر، وهي مكتبة حافلة، وفيما رأيته من كتبها تفسير البقاعي، الذي أخذ على قلمه، وشرط على نفسه، أن يحرر فيه المناسبات بين الآيات"[٤]

بنية الوصف في رحلات الإمام:

تعد قراءة النص الرحلي رحلة على متن النص يسافر فيها القارئ مع الرحالة، يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويشعر بخلجات قلبه، لذا كان لزاما عليه أن يزود النص بكل ما يجعل القارئ يذوب معه في رحلته، ويعايشه في أحداثها، خاصة إذا كانت الرحالة ذا هدف واضح من رحلته - كالإمام - إذ يحرص على وصف ما يراه جديرا بالوصف، ومعينا على إدراك الأحداث، مما يقتضي إيراد العديد من الأوصاف المتعددة كالأشخاص، والعمران، والأنشطة الإنسانية المتنوعة، والظواهر الاجتماعية المتعددة، ومع هذه الكثرة وهذا التعدد لا يمكننا من حصر الموصوفات في النصوص الرحلية بشكل دقيق[٥]، إلا أننا **نستطيع أن نلمح خطوطا عريضة في**

(١) الرحلات، ٤٣
(٢) السابق، ٥٦
(٣) السابق، ٤٠
(٤) السابق، ٧٤
(٥) ينظر: أدبية الرحلة عند العبودي، ١٤٥

النصوص الرحلية كثر ورودها فيها:

أولا: الأمكنة: إذا كان الفن السردي في المقام الأول فنا زمانيا يتشابه مع الموسيقا في بعض تكويناته، ويخضع لمقاييس مثل الإيقاع ودرجة السرعة، فإنه من جانب آخر يشبه الفنون التشكيلية من رسم ونحت في تشكيلها للمكان(١) فالعمل السردي رحلة في الزمان والمكان على حد سواء و"يشكل المكان رحى النص في النص الرحلي، فعبرَه يُفَعَّلُ الوصف، وتنفعل الحواس لأجل رصده، إن بالبصر أو البصيرة"(٢)

إن وصف المكان جزء أصيل في العمل السردي، يحمل القارئ على الإحساس بوحدة العمل وكليته، ومن هنا لا ينبغي علينا النظر إلى المكان في العمبل السردي على أنه مجرد زخرفة جمالية أو إطار خارجي مفروض على العمل، إنما هو عنصر مؤثر ذو أبعاد وتفاصيل ودلالات متنوعة تكسب العمل ثراء وفنية عالية.

وإذا كان المكان في السرد التخييلي هو نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، فإنه في الرحلة مكان حقيقي يود السارد أن ينقله بواسطة اللغة إلى من لم يشاهده ليتخيله، ولهذا لا يصبح الوصف المرتبط بالمكان ذا خاصة زخرفية أو تزيينية كما في السرود التخييلية، وإنما يصبح هدف التوصيف توثيق الشيء كما هو موجود والاحتفاظ به كمشهد سيصبح أثريّاً بعد حين(٣)

ويستقطب المكان اهتمام السارد حيثما حلَّ؛ فهو " العنصر الحيوي الدافع لنماء الرحلة، وسيرها نحو الاكتمال"(٤) فالأمكنة تتعاقب بتعاقب الأحداث، "وكلما تجدد المكان تجددت الأحداث والأخبار والمناظر"(٥)

(١) دراسات نقدية في القصة الليبية، فوزي عمر الحداد، المؤسسة العامة للثقافة، الجماهيرية العربية الليبية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ٨١

(٢) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص، أحمد بوغلا، دار ابي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ٢٤

(٣) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، إسماعيل زردومي، أطروحة دكتوراه، في الأدب القديم، جامعة الحاج الخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، باتنة، الجزائر، ٢١٦

(٤) الرحلات، ٢٧٢

(٥) السابق، ٢٢١

على كل، فوصف المكان عند الإمام وإن كان تقنية إنشائية إلا أنه مرتبط بالغرض الرئيس لرحلاته - رحلات علمية ثقافية - وهو كالمصور الفوتوغرافي فيدون بقلمه ما تلتقطه عيناه، فتصوير المكان الرحلي عند الإمام لا يمتد إلى الوصف الجغرافي أو وصف الأماكن والطرق إلا بما يخدم أهدافه الرحلية، التي يحرص دائما على التذكير بها في العديد من المواطن.

ولما كانت أغراض الرحلة عند الإمام ثقافية معرفية كما أخبر عن نفسه، فقد اهتم بوصف الجوامع، والمكتبات، ودور العلم.

أ) **المساجد والجوامع:** يقول الإمام عند حديثه عن قسنطينة: " بهذه المدينة مدرسة إسلامية معدة لتخريج القضاة والعدول، وثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة: الجامع الكبير، والجامع الأخضر، والآخر يسمى بجامع سيدي الكتاني، وفي هذا الجامع منبر من الرخام مرقوم فيه بيت من الشعر يتضمن اسم مؤسسه، وتاريخ تأسيسه، وهو:

بنى منبرا بالعز والنصر صالح له سبل الخيرات تاريخه رشد

وأسس الجامع الأخضر سنة ١٢٥٦هـ، وبها مكتبة عمومية تحتوي على عدة من الكتب المطبوعة المتداولة."[١]

ومن هذا قول الإمام في حديثه عن جولة قصيرة قضاها بحيفا: " نزلنا رفيقين إلى بلد حيفا لما رست الباخرة تجاهها، وتجولنا يمينا وشمالا، ثم آوينا إلى جامعها الكبير، ووقفنا على مشكاة يذكرون أن بها شعرات من آثار الحضرة النبوية، ورأينا في هذا الجامع أربع معلقات مقررا فيها فرائض الصلاة، وسننها، ومستحباتها، ومكروهاتها، ومبطلاتها، كل معلقة مرسومة على مذهب إمام من المذاهب الأربعة"[٢]

ومن هذا القبيل قول الإمام: " زرت مسجدها الشهير بالجامع الأموي، وشاهدت من تنميقه واتساع أركانه ما يعز نظيره فيما رأيت من المساجد

(١) الرحلات، ٣١
(٢) السابق، ٧٠

الجامعة"[١]

ب) **المدارس ودور العلم:** ومن هذا الباب قول الإمام: " ومن الغد تشرفنا بزيارة الولي الصالح الشيخ سيدي عبدالرحمن الثعالبي، وزرنا بإزائه المدرسة الثعالبية التي تم بناؤها في هذه السنة، وافتتحت باحتفال رسمي يوم الإثنين ١٧ أكتوبر، وأسست هذه المدرسة لتعليم الوطنيين العلوم العقلية والنقلية، ومنها يتخرج القضاة والعدول"[٢]

وعليه جاء قول الإمام: " وزرت مدرسة دار الحديث التي أنشأها الملك الأشرف، وفوض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين المعروف بابن الصلاح، ثم تولى مشيختها الإمامان: النووي، وتقي الدين بن السبكي، وهي التي يقول فيها ابن السبكي:

وفي دار الحـــديث لطيـــف معنـــى ... عـــلى بســـط لهـــا أصـــبو وآوي
عســـى أني أمـــس بحـــر وجهـــي ... مكانـــا مســـه قـــدم النـــواوي

ويشير بالبسط في البيت: إلى بساط رسم عليه الملك الأشرف- وهو واقف المدرسة-اسمه، وبسطه في أرضها.

قال تقي الدين السبكي في الطبقات: وكان يجلس عليه والدي تقي الدين وقت الدرس."[٣]

ومن هذا القبيل قوله: " زرت الكلية الشرعية أو الفاروقية التي كان لحضرة صاحب الجلالة ملك مصر فاروق الأول الفضل في إسعادها والنهوض بها، ولقيت هناك المتولي إدارة شئونها من قبل وزارة المعارف المصرية الأستاذ عبدالعزيز أحمد، فأطلعنا على منهج تعليمها، ونتيجة امتحانها، واجتمعنا في دمشق وبيروت ببعض المتخرجين فيها، فوثقنا بأنها مؤسسة محمودة الأثر، ولا سيما في تلك البلاد التي هي في حاجة إلى حركة إسلامية حكيمة"[٤]

(١) الرحلات، ٧٢
(٢) السابق، ٣٤
(٣) السابق، ٧٤
(٤) السابق، ١٤١

ج) **المكتبات:** لما كانت المكتبات عنوان حضارة الأمم، وحافظة تراثها، ودليل وعيها وثقافتها، فقد حرص الإمام على توثيق أهم المكتبات التي زارها، وما وجده فيها من التصانيف والمؤلفات النادرة، وأهم ملاحظاته عليها، فيقول في زيارته لمكتبات استانبول: " زرت مكتبة عاشر، ومما ألفيته في كتبها النادرة: تفسير لمجد الدين صاحب القاموس، وطالعت منه نبذة، فإذا هو من أحسن التفاسير، لكنه لا يكتب في كل آية"[١]

ويقول: " وزرت مكتبة قرب بني جامع، فألفيت بها تآليف نادرة، منها شرح ابن جني على ديوان الحماسة، وإرشاف الضرب لأبي حيان، وشروح ناصر الدين الترمذي، وسلطان شاه، وحسام الدين الموذني، وعماد الدين الكاشي على كتاب المفتاح"[٢]

ويقول في مكتبة الإسكندرية معرِّضا بها؛ لقلة نوادرها: " امتطيت عربة أتت بنا على مكتبتها القائمة بإزاء إدارة البلدية، فطالعت صحائف متفرقة من نموذج كتبها، ولم يقع بصري فيما طالعته على كتاب نادر يستحق أن نذكره"[٣]

ويعبر الإمام عن حرِّ أسفه؛ لفواته الاستمتاع بإحدى المكتبات وقد احتضنت بين جدرانها مصنفات نادرة قائلا عن مكتبة الجزائر العمومية: " وزرنا المكتبة العمومية، فرأينا فيها عدة من الكتب الغريبة؛ مثل: القبس على موطأ مالك بن أنس، وترتيب المسالك على موطأ مالك، هجت أسفا على أني لم أتمكن من زيارتها إلا في آخر يوم من أيام إقامتنا، حتى إني لم أستوف مطالعة أنموذج الكتب بتمامه"[٤]

ولا يفوت الإمام وهو الشغوف بالعلم والمعرفة الإشارة إلى مكتبات، تنامى إلى علمه احتواؤها على مصنفات فريدة، وإن لم يطالعها بنفسه، يقول الإمام: " زرت مكتبة كوبرلي، ولم أتمكن من مطالعة شيء من كتبها؛ لما يباشر فيها من

(١) الرحلات، ١١٨
(٢) السابق، ١١٨
(٣) السابق، ٥٠
(٤) السابق، ٤٥

الإصلاح لذلك الحين، ويوجد في هذه المكتبة كتاب المحلَّى لابن حزم الذي قال في حقه عز الدين عبدالسلام: لم يؤلف مثله في الإسلام"[١]

ويقول أيضا: " وزرت مكتبة آية صوفيا أياما، ولم أوافق أوقات انفتاحها، ويوجد في هذه المكتبة تسعة أجزاء من كتاب التمهيد لابن عبدالبر، ولم أظفر به فيما عرفت من المكاتب العامة أو الخاصة"[٢]

ثانيا: الأشخاص: ويهتم الإمام بوصف العلماء، وفضلاء القوم المهتمين بالعلم، ويظهر اهتمامه بالعلماء من جهتين:

أولاهما: وصف سماتهم الشخصية: وهنا ينصب اهتمام الإمام على سماتهم العلمية وما تستلزمها من أخلاق، فيقول واصفا أحد العلماء: " وللشيخ عبدالمعطي عناية كبرى بالفحص عن التآليف النادرة، والسعي الحثيث في تحصيل ما نشرته المطابع في البلاد القاصية"[٣]

ومن هذا قوله أيضا: " وزارنا الشيخ عبدالرحمن بن سلام أحد علماء بيروت، والسيد عبدالنبي أحد معلمي المدارس الأميرية، ومعرِّب جريدة سوريا الرسمية، ونثر الشيخ على أسماعنا نبذة من جواهر أشعاره، وهو من الأدباء الذين يحذون في نطقهم الاعتيادي حذو العربية الصحيحة"[٤]

ومنها قول الإمام في حديثه عن زيارته لعاصمة الجزائر: " فمكثنا غير بعيد حتى دخل الشيخ وهو محفوف بسكينة ووقار، وجلس بالمحراب، ثم رفع يديه بقراءة الفاتحة قبل افتتاح الدرس، [...] ومما يدل على صلاح حال هذا الرجل، وصفاء سريرته: أنه ما جرى ذكر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على لسانه إلا ارتعد صوته، وفاضت دموعه "[٥]

ثانيهما: وصف طرائق تعليمهم: وهنا يهتم الإمام بالتركيز على مذاهب العلماء

(١) الرحلات، ١٢٠
(٢) السابق، ١٢٠
(٣) السابق، ٥٦
(٤) السابق، ٧٥
(٥) السابق، ٣٥

في التدريس، وطرائقهم في التعليم، فيقول متحدثا عن فضيلة العالم المحدث الشيخ بدر الدين" شهدت هذا الأستاذ وهو يلقي الدرس بترسل، ويملي ما يبسطه الكاتبون على الحديث، وإذا استطرد حديثا، ساقه بسنده، وله دروس أخرى يقرئها بمدرسة دار الحديث، فإن مشيختها اليوم بيده"[١]

وإذا كان وصف الإمام هنا قد جاء خِلْوا من الانطباعات الذاتية، فقد وسمه بالاستحسان أو الاستهجان في مواضع أخرى، فعبر عما يسوؤه من أفعال المعلمين، ومن هذا الباب قوله: " ذهبت إلى الجامع الأزهر لأذان العصر، وانتدبت للتحية مكانا بين مجتمعين لتعليم القرآن، فانشق صدري أسفا لأحد المعلمين؛ إذ كان لا يضع العصا من يده، ولا يفتر أن يقرع بها جنوب الأطفال وظهورهم بما ملكت يده من القوة، وربما قفز الصبي آبقا من وجع الضرب الذي لا يستطيع له صبرا، فيثب في أثره بخطوات سريعة، ويجلده بالمقرعة جلدا قاسيا، حتى قلت لأزهري كان بجنبي: من جلس إزاء هذه المزعجات، فقد ظلم نفسه"[٢]

ويعجب الإمام بطريقة العالم الشهير عبدالقادر المجاوي في التدريس قائلا: "نستحسن من دروس هذا الشيخ اقتصاره في كل فن على تقرير مسائله التي يشملها موضوعه، وعدم خلط بعضها ببعض [...] ولهذا الشيخ أيضا خلق عظيم نحمده عليه، وهو سلوكه في معاملة التلامذة طريقا وسطا، لا ينحط عن مكانة عزة النفس، ولا يرتفع عن ساحة التواضع، تحمله عواطف النسب العلمي على العناية بشئونهم، وبذل الوسع في مآربهم، ويصده علو الهمة عن مجاراتهم فيما يزري بخطته الشريفة"[٣]

ولا ينسى الإمام أفاضل القوم ممن يبسطون يد الحفاوة لأرباب العلم، وإن لم يكونوا علماء، فيقول: " ودعانا السيدمصطفى بن الأكحل إلى منزله، وهو من أفاضل القوم، لا يحل بالبلد غريب، ولا سيما إن كان من أهل العلم، إلا وأكرم مثواه، وأحسن ضيافته"[٤]

(١) الرحلات، ٧٥
(٢) السابق، ٥٦
(٣) السابق، ٣٨
(٤) السابق، ٤٠

ومن هذا القبيل ما دار من محادثة عن الأمير عبدالقادر - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - يقول الإمام" ومررنا في حديثنا على أن هذا الأمير قد ساعده القدر على أن توفر لديه من الشهرة بخصال كاملة ما عزَّ أن يتفق لغيره من فضلاء عصره، فترى له كتائب ومجالس تنظمه في سلك العلماء، وسخاء يقف به في صفِّ ذوي السماح، ومصانعة تنظر منها إلى مقدار غوصه في غامض السياسة، ومواقع يدخل منها إلى فضيلة الإقدام، وقريض] كذا، والصواب: وقريضا [يرفع في نوادي الأدب ذكرا"[١]

ثالثا: العواطف والانفعالات: وفيها عبر الإمام عن الأوصاف المعنوية التي تجتاح نفسه إزاء انفعاله لحدث ما، استحسانا أو استهجانا، والذي ارتبط لدى الإمام بالعلم والمعرفة، **وفي هذه الأوصاف يعبر الإمام عن انشراح الصدر، وابتهاج الروح بالعلم وأهله**، يظهر ذلك جليا في أنسه بالمسامرات العلمية، والمحاضرات الثقافية، يقول الإمام عن زيارته لعين البيضاء: " وفد علينا بعض أهل العلم، مثل الشيخ محمد العربي بن قشوط، والشيخ المسعود بن علي، والشيخ أحمد بن ناجي، فاستنارت صدورنا تأنسا بمحاورتهم العلمية في سائر ذلك اليوم"[٢]

ويقول في معرض حديثه عن زيارته لباتنة وتطوافه في شوارعها: " وفي أثناء المطاف قال لي رفيقنا المذكور: إني أعرف هنا رجلا من أهل العلم والأدب، فقلت: تلك الضالة التي ننشدها في مثل هذه الليلة، اسع بنا إلى أن نروح الخواطر بأسماره"[٣]

ففي هذه المقاطع الوصفية يظهر لنا سعادة الإمام الغامرة بمجالس العلم، وحلقات المدارسة، وكم تكون سعادة الإمام بالغة إذا وافق في سفره ثلة من أهل العلم والمعرفة، يقول في هذا: " جمعت هذه الباخرة طائفة عظيمة من أهل العلم، ما بين أساتذة وتلامذة، فحصل لنا من محاضرتهم ولطفهم ما يكشف ضجر الاغتراب، ويسلي النفس عن معاهد أنسها"[٤]

(١) الرحلات، ٨٧
(٢) السابق، ٣٠
(٣) السابق، ٣٣
(٤) السابق، ١٠٤

ويقول: " ركب الباخرة من مرسين طائفة من العلماء، منهم الشيخ أحمد بن محمد شكري، والشيخ ولي الدين بن والي، والشيخ علي رضا، فتعززت بهم اجتماعاتنا العلمية، وازدادت بهم رنة الأدب نغمات لذيذة"[١]

وقد يصف مشاعره، كاشفا عن أسباب أنسه، يقول في معرض حديثه عن حفلة الشبان المسلمين في دمشق: " وسرني من هذه الحفلة أنها كانت وليد عاطفة أدبية إسلامية خالصة، وأن خطباءها كانوا من شباب الأساتذة الذين أضافوا إلى ثقافتهم العصرية ثقافة إسلامية صحيحة"[٢]

ويقول في معرض آخر: " وحضرت بدروس الوعظ التي تلقى بالجامع الأموي في رمضان[...] وأعجبت بحسن إلقاء هذه الدروس، واختيار موضوعها، ونقد شؤون كان في استطاعة الحكومة إصلاحها"[٣]

على أية حال، فالوصف يعد من أهم أدوات السرد التي اعتمد عليها الإمام، والذي حرص من خلاله على نقل الواقع محاولا تقريبه للمتلقي، فجاء وصفه متسما" بالدقة والشمولية والتحكم في نقل الصورة المرئية لتقريبها من ذهن المتلقي، فهو سارد وصَّاف ينظم وحداته السردية على هذا الأساس"[٤]

وإذا كان للسرد وظيفتان أساسيتان: إفادة القارئ، وإمتاعه، " فالرحالة عندما يوقف السرد من أجل أن يصف مكانا أو شيئا أو شخصا إنما يسعى من وراء ذلك إلى إفادة القارئ بمعلومات ومعارف حول هذا الموصوف"[٥] فالمهمة المعرفية من وظائف الوصف التي تهم السارد، كما تقتضي هذه الوظيفة صدق الوصف بحيث يمكن أن يستقي المتلقي من الوصف معلومات صحيحة تصلح أن تبقى وثيقة يُرجع إليها[٦]

(١) الرحلات، ١٠٩
(٢) السابق، ١٤٣
(٣) السابق، ١٤٤
(٤) المتكلم في السرد العربي القديم، أعمال ندوة بإشراف: محمد الخبو ومحمد نجيب العمامي، دار محمد علي، صفاقس، مطبعة التفسير الفني، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ١٥٦
(٥) الرحلات المغربية السوسية، ٣٣٢
(٦) السيميولوجيا وأدب الرحلات، لطيف زيتوني، عالم الفكر، يناير/مارس١٩٩٦م، المجلد الرابع

وبالنظر إلى الوصف في هذه النصوص الرحلية نجد أن الإمام قد استغله بالصورة التي تحقق له الغرض الرئيس من رحلاته، والذي ركز فيه ومن خلاله على المضامين المعرفية والثقافية والتي حرص على توثيقها بأماكنها، وأعلامها، وسماتهم العلمية والخلقية، حتى إننا نستطيع القول إن هذه النصوص تعد وبحق وثيقة علمية ثقافية يمكن الرجوع إليها.

وعلى الرغم من حرص الإمام على الفائدة، فإن الوظيفة الإمتاعية كان لها وجود في هذه المقاطع الوصفية التي يمكن عدُّها " محطات جمالية يستريح فيها المؤلف والقارئ من متابعة الأحداث وعناء السرد، إضافة إلى أنه يكسر توالي السرد ورتابته، وبذلك يدفع الملل، لأن الشيء إذا توالى مُلّ، ويخلق في الوقت ذاته لدى القارئ تشويقا إلى متابعة القراءة؛ لمعرفة ما سيحدث بعد أن ينتهي الوصف"[١]

=
والعشرون، العدد الثالث، ٢٥١
(١) الرحلات المغربية السوسية، ٣٣٢

المبحث الرابع
الحوار

يعد الحوار نمطا من أنماط التعبير الفني، وآلية من آليات عدة يلجأ إليها الأديب لخلق كيان أدبي. وهو جزء من البناء السردي، إلى جوار الكثير من الوسائل الأخرى القادمة من خارج حقل السرد، بيد أنها تضيف الكثير للعملية السردية إذا ما أحسن الكاتب توظيفها، فالعلاقة بين الحوار وبقية عناصر السرد علاقة بنيوية وظيفية.

وتقوم علاقة الحوار بالسرد على مفهوم العلاقة بين التابع والمركز أو الطارئ والثابت، أو الثانوي والرئيس، فالسرد هو المركز الثابت والمكون الرئيس للأدب القصصي، الذي يتسم من خلاله بطبيعته المميزة له نوعا أدبيا. أما الحوار فهو وافد من موقع الثبات والسيطرة والمركز، ويؤدي لقاء الحوار بالسرد في بنية الخطاب وظائف جديدة تولد من تلك العلاقة الناشئة، لعل في مقدمة تلك الوظائف سعي الكتاب إلى كسر الرتابة التي يمكن أن تنتج عن السرد المستمر، وحرصهم على تجريد شخوصهم من الإسقاطات الذاتية، وجعلهم يتكلمون في إطار من الموضوعية والحياد.[(١)]

ويمكن تعريف الحوار بأنه" الأداة القصصية المتمثلة في نقل الأقوال أو حكايتها بالتمثيل"[(٢)] وهو في القص المرجعي" نقل حقيقي؛ لأنه إيراد أقوال قيلت حقا خارج القصة"[(٣)]

ويختلف الحوار عن الوصف والسرد من جهة أن" مادته ليست الأعمال (مثلما هو الشأن في السرد) وليست السمات والأحوال (مثلما هو الشأن في الوصف) وإنما هو أقوال الشخصيات باعتبارها لبنة من لبنات المغامرة نقلت لتصير

(١) الحوار القصصي (تقنياته وعلاقاته السردية) ، فاتح عبدالسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م، ١٣

(٢) الحوار" خلفياته وآلياته وقضاياه"، الصادق قسومة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ٣٦

(٣) السابق، ٣٦

قسما من أقسام الخطاب"[١]

على كلٍّ، فإن من يقرأ النصوص الرحلية للإمام يجد أنه حرص على تزويدها بالعديد من المقاطع الحوارية التي تمد القارئ بالخلفية الثقافية التي يريد الإمام إيصالها إليه بما تحمله من العلوم والمعارف والطبائع والعادات.

ونستطيع ضبط مواضع الحوار في النص بالقرائن الدالة عليه والتي تتعين في" العلامات السردية المتمثلة في أفعال القول وما شاكلها"[٢]

فقد افتتح العديد من حوارات هذه النصوص بفعل القول، كما جاء في قول الإمام" وكان هؤلاء الأساتذة قائمين في العشر الأخيرة من شهر الصوم بسنَّة الاعتكاف في هذا الجامع، وقال لهم أحد الفضلاء في محاورة بعد الدرس: قد شغلناكم وأنتم عاكفون، فقلت له: يقول أبو بكر بن العربي: إن المذاكرة في المسائل العلمية من قبيل الطاعات الملائمة لمقصد الاعتكاف"[٣]

كما افتتح الكثير من حوارات هذه النصوص بأفعال مشاكلة لفعل القول، يظهر ذلك في قول الإمام" وبعد أن ختمت المسامرة، وانفضت الجماعة، تجاذبنا مع ذلك المدرس محادثة خاصة، فاستجلينا من خلالها أنه الشيخ محمد الصالح بن الشايب العدل بالمحكمة القضائية"[٤]

ومن العلامات السردية الدالة على الحوار الاستفهام، فغالبا ما يتبع ذلك رد مباشر من طرف آخر مولدا ما يسمى بالحوار، كما في قول الإمام" ثم استدارت الجماعة على هيئة درس، ورأيت في يد أحدهم سفرا، فالتفت إلى ذلك الفاضل، وقلت له: هل لكم درس في هاته الساعة؟ فقال: نعم، درس في التوحيد، ولكن نريد أن نعوضه بمسامرة علمية معكم"[٥]

(١)الحوار" خلفياته وآلياته وقضاياه"، ٣٦
(٢) السابق، ٤٨
(٣) الرحلات، ٨٧-٨٨
(٤) السابق، ٢٨
(٥) السابق، ٢٧

أنماط الحوار في نصوص الإمام الرحلية:

تختلف أنماط الحوار بحسب" العلاقة بين المتحاورين [...] فإذا كانت العلاقة غير متكافئة - بسبب جهل أحد الطرفين ما يعلمه الآخر - هيمن السؤال الحقيقي وجوابه، وبذلك يكون الحوار تعليميا تنتقل فيه المعارف والأخبار من الشخصية التي تعلمها إلى الشخصية أو الشخصيات التي تجهلها"[1]

وحين نمعن النظر في حوارات هذه النصوص ندرك ندرة هذا النمط الحواري، ويمكننا رد هذا إلى طبيعة الإمام الرحالة العلمية الثقافية، وطبيعة الأشخاص الذين يقابلهم في رحلاته، فهو حريص على ملاقاة أهل العلم والفضلاء، الأمر الذي يجعل طبيعة أحاديثهم تدور في فلك العلم، وتكون على قدر متقارب من الكفاءة العلمية.

ومن هنا فإن الحوارات غير المتكافئة إنما تجيء لُمَعا وسط هذه النصوص والتي جاءت عرَضا من قبيل التعليم والإرشاد، وقد جاءت على لسان خال الإمام الشيخ العلامة محمد المكي بن عزوزيقول الإمام: "زار أحد التلامذة من بني غازي منزل خالنا الأستاذ، فحدثني الشيخ: أن هذا التلميذ كان رافقه من بني غازي إلى الآستانة، فرأى عنده ما يلبس في اليد لوقاية البرد، قال: فسألته عن اسمه باللسان التركي، ثم عن اسمه باللسان الفرنساوي، فأجابني بهما، وسألته عن اسمه عند العرب، فأجاب بعدم المعرفة، فقلت له إن جهلك باسم الشيء في لغة قومك مع علمك باسمه في لغة أخرى، مما يلصق بك نقيصة، ويجر إليك ملامة، ثم أعلمته بأن اسمه في العربية قُفَّاز"[2]

وقد ينقل الإمام هذا الحوار غير متكافئ على لسان الآخر، كما في الحوار التالي الذي نقله الإمام من الجامع الأزهر "وكان أمامي في هذه الجلسة تلميذان يتفاهمان كتابا في العربية يطالعانه، بمقربة منهم تلميذ ثالث، حتى أتيا على قول الشاعر:

..... عـلى أن فاهـا كالسـلافة أو أحـلى

(١) معجم السرديات، (حوار)

(٢) الرحلات، ١٢١

فقال أحد التلميذين: السلافة: الخمر، فقال له ذلك التلميذ الذي هو بمعزل عنهما: السلافة: حيوان، فأعاد عليه الأول القول بأنها الخمر، وكرر الآخر القول بأنها حيوان، فقال له صاحبه منبها على وجه خطئه: أو أحلى، أو أحلى!فرجع وقال: السلافة شيء ضيق، قال هذا ليلائم تشبيه الفم بها، وأظنه اشتبه عليه أولا لفظ السلافة بالسلحفاة"[١]

وقد تكون العلاقة متكافئة بين طرفي الحوار، فليس ثمة تفوق لأحد الطرفين على الآخر، من قبيل هذا الحوارات المبنية على النقاش بين المتحاورين، وحين ندرس حوارات هذه النصوص ندرك سيطرة هذا النمط، ويمكننا عزو هذا الأمر إلى طبيعة الإمام المعرفية، وحرصه على تزويد المتلقي بما يحقق غرضه الرحلي، ألا وهو تحميل المتلقي بأكبر عدد من المعلومات العلمية والثقافية عن البلد المرتَحل إليه، وثقافة أهله، ومدى حرصهم على تلقي العلوم.

من هذا على سبيل المثال لا الحصر قول الإمام في عوائد أهل الشام في زيارة القبور وغرس غصون ذات أوراق طرية عليها، باعتقاد أنها تنفع الموتى مستدلين بحديث غرز النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عودين من جريد على قبر من لا يستتر من بوله، ومن كان يمشي بنميمة، وقوله لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا"وقد فاوضني في هذه العادة أحد الفضلاء من الأرناؤوط يوم العيد، وذكر الحديث، فقلت له: إن غرز النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للعود الرطب لداع غيبي، ومعنى يختص به، مثل أن تكون مدة بقاء الطراوة فيه غاية لما وقع فيه الطلب من تخفيف العذاب عنهما"[٢]

ومن هذا القبيل قول الإمام "زارني إلى قصر البحر فضيلة العالم الشيخ السيد مصطفى نجا المفتي ببيروت، يصاحبه بعض أهل العلم، ودارت في هذا المجتمع مسائل جرنا إليها سؤال بعض الحاضرين من ذوي التجارة، منها حكم التعاقد مع شركة تأمين البضائع، فصرح الشيخ المفتي بأن الشريعة الإسلامية لا تبيح الدخول في هذه العقدة، إذ لا شبهة أنها من قِبل أكل أموال الناس بالباطل،

(١) معجم السرديات (وصف)
(٢) الرحلات، ٩٠-٩١

فقد لا يطرأ على البضاعة تلف، فيكون المال الذي يدفعه صاحبها قد ضاع منه بغير عوض، وإذا وقعت في متلفة، يكون قد أخذ قدرا من المال من غير مقابل، وهذا هو الغرر البين، والربا الفاحش الذي حرمته الشريعة تحريما مغلظا"[١]

وظائف الحوار في نصوص الإمام الرحلية:

من أهم وظائف الحوار " فسح المجال لأصوات كثيرة في القصة، يمكن أن يمثل كل منها رأيا أو إحساسا أو رؤية خاصة مدارها قضايا مختلفة"[٢] فالحوار يمنح النص حيوية فمن خلاله تتعدد الأصوات، وتتداخل الشخصيات، وتتراوح أساليب السرد مما يدفع السأم والملل عن المتلقي.

ويتمتع الحوار في هذه النصوص بمجموعة من الوظائف، من أهمها:

أ) **إلقاء الضوء على الشخصية:** يستطيع الحوار أن يسلط لنا الضوء على سمات الشخصية المتحدثة، فيكشف لنا عن بعض ملامحها ومكوناتها النفسية والاجتماعية، وبإلقاء نظرة في حوارات هذه النصوص الرحلية نستطيع أن نضع خطوطا رئيسة لشخصية الإمام الرحالة، لعل من أهمها: حرصه الشديد على العلم والمعرفة، من هذا ما ذكره الإمام في رحلته لباتنة" وفي أثناء المطاف قال لي رفيقنا المذكور: إني أعرف هنا رجلا من أهل العلم والأدب، فقلت: تلك الضالة التي ننشدها في مثل هاته الليلة، اسع بنا إلى أن نروح الخواطر بأسماره"[٣]

ومما يكشف لنا عن شخصية الإمام العلمية أيضا، ما ذكره الإمام عن حديث دار بينه وبين إمام مسجد في الإسكندرية قائلا" ثم حان وقت صلاة العصر، وبعد أن انصرف من صلاتها، ألقى علي السلام متعرفا لأثري، وعرض عليّ المبيت بمنزله في طرف البلد، فاعتذرت له بقصر مدة الإقامة، وقصد الاستطلاع على مناظر البلد ومعاهدها العلمية"[٤]

(١) الرحلات، ١٠٠
(٢) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه، ٤٥
(٣) الرحلات، ٣٣
(٤) السابق، ٤٩

كما يسهم الحوار في رسم صورة عن شخصيات أخرى، بخاصة أعيان العصر وعلماؤه، من ذلك ما حكاه الإمام قائلا: " أن علي باشا أحد الأمراء بتونس، كان يستدعي إلى مجلسه أعيان العلماء، وفي زمرتهم الشيخ حمودة الريكلي أحد علماء ذلك العصر، فقال لهم الباشا يوما: إني أكرم مثوى العلماء، وأرفع مقامهم أن يسوم حقوقهم خسف، كما كان يلحقهم فيما سلف، فشكر له بعض الحاضرين هذه الميزة، ولم يستطع الشيخ حمودة الريكلي أن يطوي حقيقة خطرت على ضميره الحر، فقال له: الوجه في هذا أن من تقدم من العلماء كانوا يعترضون الأمراء فيما يسوقهم إليه عامل الاستبداد، فيطفئونهم حتى لا تكون حياتهم نورا يكشف عن مساوئ أعمالهم، ونحن - أيها العلماء - قد ألقينا السلم، وتغاضينا عن كل سيئة، فبأي حق تهضم حقوقنا، أو تنتهب أعمارنا؟! وقد وقع لهذه الموعظة أثر بالغ في نفس الباشا، فجازى الشيخ بالمكرمة، وأعاده إلى منزله على مركبه الخاص به، وعدت هذه الواقعة منقبة فائقة للعالم والأمير"[(١)]

ولم يكشف الحوار عن جدية الإمام ومن سايرهم من العلماء في مناقشاتهم العلمية فحسب، وإنما ألقى الضوء على ما يتسمون به من روح الدعابة، وخفة الروح، يظهر لنا هذا مما دار في الحوار التالي: " تفضل علي بالزيارة في هذا المساء السيد شرف أحد الأعيان في عائلة أشراف مكة المحترمة، [...] ثم أخذ بيدي حتى امتطينا عربة سارت بنا لإجابة دعوة السيد الشريف بن حمودة، ولما انقضت المسافة، ضرب كل منا بيده إلى كيسه ليتولى خلاص أجر الركوب عن سائر الجماعة، فكانت يد السيد شرف أسرع في فتح الكيس، ومناولة الدراهم لسائق العربة، وأكد علينا أن نرد إلى الأكياس بضائعها، فقال له الشيخ محمد الصالح الشواشي على وجه الدعابة: لا تقسم علينا أيها الشريف متطاولا، فنحن أشراف أيضا فتبسم منبسطا لهذه الجسارة المشعرة بسلامة ضميره وحريته.
وقد تذكرت بهذه المداعبة ما كتبه الشريف الرضي إلى الإمام القادر بالله وهو:

عطفا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرّقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ ... أبدا كلانا في المعالي معرقُ

(١) معجم السرديات (وصف)

إلا الخلافـــة قلّـــدتك فـــإنني أنـــا عاطـــل منهـــا وأنـــت مُطَـــوَّقُ[1]

وقد يسهم الحوار في رسم صورة عن المجتمع ككل، كما في قول الإمام: " انطلقنا من المرايجات يوم الجمعة، وصعد من بعض مواقف الرتل رجل من أهالي لبنان يقارب في نطقه العربية الصحيحة، وكان هذا الرجل يلاحظ عباراتي، ويتفقدها من حيث الإعراب، حتى قال في آخر المحادثة، عندما أزمع على الإنصراف: هل جميع التونسيين يلفظون بالعربية؟ فقلت له: لا، يتفاوتون في قرب ألسنتهم منها، وإنما الذين ينسجون على منوالها، ويتحرون أساليبها هم طوائف أهل العلم والأدب"[2]فقد أطلعنا الإمام في هذا الحوار عن لسان عامة التونسيين وخاصتهم.

ويكشف الحوار التالي عن سبب قصر خطبة الجمعة في تركيا، يقول الإمام: " لا يبسط الخطباء من الترك في الموعظة، وإنما يأتي الخطيب بالديباجة من حمد وصلاة ورضا عن الصحابة، ثم يلقي جملة فيها أمر بالتقوى، ويضيف إليها حديثا أو آية. وذاكرت في هذا أحد الأساتذة، وقلت: لعلهم يراعون أن غالب الحاضرين لا يفهمون العربية، فيقتصرون على القدر الذي يتم به نصاب الخطبة؟ فقال: كان هذا من أثر العصر السالف حيث يخشى من استطالة الخطبة أن تبث فيها آراء سياسية"[3]

ب) **الإخبار والإعلام:** وفيه يلعب الحوار دورا في الإخبار" بأحداث أو معطيات سابقة أو جديدة، صحيحة أو خاطئة، وقد يكون هذا الحوار محمل أمور جديدة على المخاطب أو على القارئ أو عليهما معا"[4]

ولنأخذ مثالا على ذلك بما جرى من حوار على متن الباخرة الروسية في رحلة الإمام إلى الآستانة حيث قال: " لقيت رجلا عليه زي علماء الأزهر، وفي يده سفر، فقلت له: ما هذا الكتاب الذي تنظر فيه؟ قال لي: ديوان شاعر يقال له

(١) الرحلات، ٦٧-٦٨
(٢) السابق، ٩٨
(٣) السابق، ١١٢
(٤) الحوار خلفياته وآلياته وقضاياه، ٦٦

مسلم بن الوليد، فقلت له: أول من أفسد الشعر العربي أبو تمام، ومسلم بن الوليد. فقال لي: لعلك صاحب أدب، فقلت له: وفي بعض الأحيان يجيش به صدري، فانعقد التعارف بيننا، واستمرت المرافقة إلى الآستانة"[١] فقد استغل الإمام الحوار كقالب سردي أخبر فيه عن آرائه النقدية مجاهرا أن أبا تمام ومن قبله مسلم بن الوليد هما أول من أفسدا الشعر العربي، كما عرفنا من خلاله أيضا أن له ذائقة أدبية، وأنه ذو ملكة شعرية.

ومن النماذج التي لعب فيها الحوار دور بوق الإعلام والإخبار ما ذكره الإمام في حفل وداع التلامذة بالشام، وما قصه أحد الحاضرين خطيبا فقال: " أنه كان رأى في جريدة كذا: أن ملك الجابون أرسل طائفة من التلامذة ليتعلموا بأوربا، فلما عادوا إلى وطنهم، اقترح عليهم الملك أن ينشئوا له باخرة، فنظر بعضهم إلى بعض، فكرر عليهم عبارة الاقتراح، فقالوا: لا يمكننا صنع البواخر إلا بحضور أحد أساتذتنا، فأمر بصلبهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم من التلامذة، فلا يرجعون من تعليمهم حتى يبلغوا ما بلغت الأساتذة، ثم أقبل على التلامذة الثلاثة وقال لهم: وأنتم أيضا إن عدتم إلينا غير قادرين على العمل، فإنا نشنقكم، ونزل، فاهتز النادي ضحكا"[٢]

ج) **التفسير:** وتظهر لنا وظيفة التفسير في الحوارات المعنية بتفسير عبارة أو ظاهرة، أو حدث معين. وما جاء من هذا القبيل ما حكاه الإمام على لسان خاله قائلا: " مما أعلمني به فضيلة خالنا الأستاذ: أن الشيخ محمود الشنقيطي انتقد على القاضي عياض -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- تسمية كتابه بالشفا، وقال: إن الشفا ممدود، ولا يسوغ قصره إلا لضرورة الشعر، وهي مفقودة في وضع هذا الاسم، وقال الشيخ الأستاذ: كنت أجبت عن هذا؛ بأن اسم الشفا قد وقع موقع الوقف؛ حيث أتى خاتمة فاصلة، والممدود يوقف عليه بالقصر، كما هو مقرر في علم القراءة"[٣]

(١) الرحلات، ١٠٤
(٢) السابق، ٨٤-٨٥
(٣) السابق، ١١٣-١١٤

ومن هذا الباب أيضا قول الإمام: " خرجت ليلة صحبة فضيلته لزيارة أحد الأصدقاء، والسبل وعرة، والمطر يرشح، فكنت أقتفي أثره وأتمهل في الانحدار، فقال لي: سر على أثري، وقد قرئ قوله تعالى: ﴿على أثري﴾[طه: ٨٤] بسكون الثاء وفتحها، فقلت: يؤخذ من الآية: أن الإنسان يخبر بما يظنه واقعا، ولا حرج عليه أن يبرز الخبر في صورة القطع؛ فإن سيدنا موسى ــ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ــ كان يظن أن قومه في أثره، وألقى الخبر، وذلك من غير أن يسنده إلى ظن، فقال الشيخ الأستاذ: هذا حسن، ورتب عليه قول الفقهاء: واعتمد البات على ظن قوي"[(١)]

د) **التعليل:** من وظائف الحوار في هذه النصوص الرحلية التعليل لما قد يُشكِل فهم سببه أو علته، كما في الحوار الذي دار بين الإمام وبين الشيخ شرف الدين في مكتبة بايزيد" ولقيت في هذه المكتبة الشيخ شرف الدين أحد المدرسين الأذكياء، وأول خطاب توجه إليّ: أنه رأى في يدي بعض شروح الشفا؟!للشيخ ابن سينا، أخذته لمطالعة بعض المباحث، فقال لي: تنظر كتاب الشفا؟! هذا الكتاب وأمثاله من الفلسفة القديمة التي لا فائدة في الاشتغال بها، ومطالعة الكتب الحديثة في هذا العلم أعظم فائدة وأغنى، فقلت: نطالع التآليف الحديثة، ولا ننكث أيدينا من القديم، وهنا تمادت بنا المحادثة إلى التعارف، وأخذ الموعد على اللقاء"[(٢)]

على كل، فقد حرص الإمام على نقل العديد من المواضع الحوارية، سواء كان طرفا فيها، أم مستمعا لها، آملا تزويد القارئ من خلالها بما يهدف إليه من معارف ومعلومات، وطبائع وعادات. محققا بذلك دور الحوار في ظهور أصوات أخرى غير صوت الرحالة السردي المهيمن، ولذلك دوره المهم في تسليط الضوء على وجهات النظر المتعددة، التي تثري الموضوع وتتيح فرصة لتلاقح الأفكار والآراء والرؤى، هذا بالإضافة إلى ما يحققه الحوار من مراوحة بين الأساليب، وكسر رتابة السرد مما يطرد السأم والملل عن القارئ ويسر مهمة التلقي لديه.

(١) الرحلات، ١١٤

(٢) السابق، ١١٨-١١٩

الخاتمة

الحمد لله ذي النعمة والفضل، الحمد لله أولا وآخرا، الحمد لله الذي أعان ووفق، وهدى وأرشد والصلاة والسلام على سيد الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد

فقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج يمكن إيجازها في:

- ثراء مفهوم الرحلة لغويا انعكس على مفهومه الاصطلاحي.
- هجنة هذا الشكل الأدبي، وانفتاحه على عدد من النصوص مما جعله مستعصيا على التجنيس.
- الطابع المعرفي الكثيف للنصوص الرحلية مما يجعلها وثيقة حضارية للبيئة المنبثقة عنها.

كما انتهت الدراسة السردية إلى عدد من النتائج **التي تكشف عن أدبية النصوص الرحلية للإمام محمد الخضر حسين من أهمها:**

- جميع التقنيات السردية التي استخدمها الإمام جات في المقام الأول متوافقة مع رؤية الإمام، وغرضه الأصيل من رحلاته التعليمية الدينية.
- في دراستي للترتيب الزمني نجد الإمام قد راوح بين الارتداد والاستباق في مفاصل الرحلات الصغرى، أما الكبرى فقد جاءت مطابقة للواقع.
- أما عند النظر في السرعة فقد استعان الإمام بالمعجلات السردية عند استغنائه عن ذكر بعض الأحداث، مستخدما تقنيتي الإضمار والإجمال، كما استخدم المشهد والوقفة كتقنية سردية لإبطاء السرد.
- وفي الوصف تعددت مواطن وروده، كما استغله الإمام بما يحقق له الغرض من رحلاته فركز في السرد على المضامين المعرفية والثقافية، دون أن يغفل الوظيفة الإمتاعية فجاء وصفه محطات فنية، وجمالية.
- ولعل أهم نتائج دراسة الحوار تكمن في استنباط القرائن الدالة عليه، والوقوف على أنماطه، محققا بذلك أهم وظائف الحوار من إثراء للموضوع،

وإتاحة الفرصة بصوت الآخر لتلاقح الأفكار، وكسر رتابة السرد.

التوصيات:

إذا كانت الدراسة قد وسمت النصوص الرحلية للإمام بالأدبية في السمات النوعية المشتركة في كل عمل أدبي، فإنها توصي بتسليط الضوء - في الدراسات المستقبلة - على خصائصها الشكلية، وسماتها الفنية ذات الطابع المتواتر والمؤثر في عملية التلقي الجمالي والتي تحلق بها في عالم الأدبية.

ولا أدعي الكمال في هذه الدراسة، فالكمال لله وحده، وإنما هي جهد المقل، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، والحمد لله أولا وآخرا.

ثبت المصادر والمراجع

القران الكريم

أولا: المصادر والمراجع:

١) أدب الرحلات، د/حسين محمد فهيم، طبعة سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٩م، كتاب رقم١٣٨، ١٥.
٢) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، محمد سيد كيلاني، دار الفرجاني، القاهرة، طرابلس، لندن
٣) الإرث الفكري للإمام محمد الخضر حسين، ضمن موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، شركة دار النوادر الكويتية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م
٤) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م
٥) بحوث في السرد العربي، محمد نجيب العمامي، مكتبة علاء الدين، دار نهى، صفاقس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م
٦) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمه من الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م
٧) تحفة الألباب ونجفة الإعجاب، أبو حامد الأندلسي، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، المغرب، ١٩٨٣م
٨) تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، د/عبدالعليم محمد إسماعيل علي، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة.
٩) دراسات نقدية في القصة الليبية، فوزي عمر الحداد، المؤسسة العامة للثقافة، الجماهيرية العربية الليبية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م
١٠) الحوار: خلفياته وآلياته وقضاياه، الصادق قسومة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م
١١) الحوار القصصي"تقنياته وعلاقاته السردية"، فاتح عبدالسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م
١٢) خطاب الحكاية: بحث في المنهج، جيرار جنيت، ترجمة محمد معتصم وعبدالجليل الأزدي وعمر حلي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م
١٣) خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جده، الجزء ٩، المجلد ٣، ١٩٩٣م
١٤) خطرة الطيف، رحلات في المغرب والأندلس، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: أحمد

مختار العبادي، دار السويدي، الطبعة الأولى، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣م
١٥) دائرة المعارف، بطرس البستاني، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٤م
١٦) ديوان خواطر الحياة، ضمن مسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، شركة دار النوادر الكويتية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م
١٧) رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن، نواف الجحمة، دار الأهلية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١م،
١٨) الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، نوال عبدالرحمن الشوابكة، دار المأمون، الطبعة الأولى، عمان، ٢٠٠٨م
١٩) الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي، محمد الحاتمي، تقديم عباس الجراري، منشورات فريق البحث في التراث السوسي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير
٢٠) الرحلات، ضمن مسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، شركة دار النوادر الكويتية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م
٢١) رحلة ابن فضلان، ابن فضلان تحقيق: سامي الدهان، مكتبة الثقافة العالمية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٧م
٢٢) الرحلة الأندلسية الأنواع والخصائص، أحمد بوغلا، دار أبي رقراق، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م
٢٣) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر: مستويات السرد، عبدالرحيم مودن، دار السويدي، أبوظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م
٢٤) الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ناصر عبدالرزاق الموافي، دار النشر للجامعات المصرية، الطبعة الأولى، مصر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م
٢٥) الرحلة في الأدب العربي، التجنس، أليات الكتابة، خطاب المتخيل، شعيب حليفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية- شهرية ١٢١، أبريل ٢٠٠٢م
٢٦) الرسالة الثانية، أبو دلف، ترجمة وتعليق: محمد منير مرسي، عالم الكتب، مصر، ١٩٧٠م
٢٧) الرواية والتاريخ، نضال الشمالي، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦
٢٨) الزمن النوعي وإشكاليات النوع السردي، هيثم الحاج علي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م
٢٩) الزمن في الرواية العربية، مها حسن القصراوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٤م

٣٠) السرد العربي مفاهيم وتجليات، سعيد يقطين، رؤية، ٢٠٠٦م
٣١) الشيخ محمد الخضر حسين سيرته ومؤلفاته، د/محمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م
٣٢) طرائق تحليل السرد الأدبي، مجموعة كتاب، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م
٣٣) فن الرحلة في الرواية العربية من خلال "الأشجار، لعبدالرحمن منيف"، بلقاسم مارس، دار نهى، الطبعة الأولى، صفاقص، ٢٠٠٧م
٣٤) فنون الأدب العربي: الفن القصصي-٤الرحلات، د/شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة
٣٥) فنون النثر الأدبي في الجزائر(١٩٣١-١٩٥٤م)عبدالملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣م
٣٦) في الأدب الجزائري الحديث تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، عمر بن قينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥م
٣٧) في الرواية والقصة والمسرح، قراءة في المكونات الفنية والجمالية السردية، محمد تحريشي، دار دحلب للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧م
٣٨) في ظلال النصوص تأملات نقدية في كتابات جزائرية، يوسف وغليسي، جسور للنشروالتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، ٢٠٠٩م
٣٩) في مناهج تحليل الخطاب السردي، عمر عيلان، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٨م
٤٠) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الثامنة، مؤسسة الرسالة، لبنان، ٢٠٠٥م
٤١) لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م
٤٢) المتكلم في السرد العربي القديم، أعمال ندوة بإشراف: محمد الخبو ومحمد نجيب العمامي، دار محمد علي، صفاقس، مطبعة التفسير الفني، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م
٤٣) محمد الخضر حسين حياته وآثاره، محمد المواعدة، الدار الحسينية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م
٤٤) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م
٤٥) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، دار محمد علي، صفاقس، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م

٤٦) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤م
٤٧) معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م
٤٨) معجم مقاييس اللغة، أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، ط٢، دار الفكر، سوريا، ١٩٧٩م
٤٩) المقامات، السرد والأنساق الثقافية، عبدالفتاح كيليطو، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م
٥٠) منطق السرد" دراسات في القصة الجزائرية الحديثة"، عبدالحميد بورايو، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، ١٩٩٤م
٥١) نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيا: الرسائل الجامعية:

١) أدبية الخطاب في رحلة نور الأندلس لأمين الريحاني، فاطمة بوطبسو، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى
٢) أدبية الرحلة عند العُبُودي رحلاته إلى البرازيل أنموذجا، عمران بن محمد الأحمد، رسالة ماجستير، جامعة القصيم، كلية اللغة العربية والآداب الاجتماعية، المملكة العربية السعودية
٣) سيميائية الفضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي، كمال بولعسل، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية الآداب واللغات، ٢٠٠٥م/ ٢٠٠٦م،
٤) فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، إسماعيل زردومي، أطروحة دكتوراه، في الأدب القديم، جامعة الحاج الخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، باتنة
٥) المحتمل في الرحلة العربية إلى أوربا وأمريكا والاتحاد السوفياتي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، أكادير، ١٩٩٨م

ثالثا: المجلات:

١) أدب الرحلة إشكالية المصطلح وزئبقية المفهوم، نصيرة بحري، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العددالتاسع عشر، ٢٠١٩م
٢) أدب الرحلة بين محوري التموقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكاليات والآفاق، الطيب بوقرط، مجلة تاريخ العلوم، العدد السادس
٣) أدب الرحلة، سؤال الأدبية وإشكالية الانتماء، نصيرة بحري، نورية هاتي، مجلة الموروث، جامعة عبدالحميد بن بادس مستغانم، كلية الأدب العربي والفنون، الجزائر، المجلد التاسع، العدد الثاني، ديسمبر٢٠٢١م

٤) إشكالية الزمن في النص السردي، عبدالعالي بوطيب، فصول، المجلد الثاني عشر، العدد الثاني، صيف١٩٩٣م
٥) الرحالة وكتب الرحلات الأوربية إلى المشرق حتى نهاية القرن الثالث عشر، جبور الدويهي، مجلة الفكر العربي، العدد٣٢، ١٩٨٣م
٦) السيميولوجيا وأدب الرحلات، لطيف زيتوني، عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، العدد الثالث، يناير/مارس١٩٩٦م
٧) الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية، د.صلاح الدين الشامي، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث عشر، العدد الرابع، ١٩٨٣م، الكويت
٨) الرحلات في الأدب الإنجليزي، إنجيل بطرس، مجلة الهلال، العدد السابع، ١٩٧٥م
٩) الشيخ محمد الخضر حسين، أحمد عبدالعزيز أبوعامر، مجلة البيان، العدد الثالث، المنتدى الإسلامي، الإصدار الأول، ربيع الآخر ١٤٠٧هـ/ ديسمبر١٩٨٦م
١٠) مفهوم الترحال وأدب الرحلة: التعالق والاختلاف وخصوصية الرحلة إلى المدينة المنورة، أمل بنت الخياط التميمي، الآطام، المجلد الثالث عشر، العدد ٤٠/٣٩، النادي الأدبي بالمدينة المنورة، ربيع الآخر١٤٣٢هـ/مارس٢٠١١م

هذا وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله عدد كمال الله وكما يليق بكماله

References:

1) Travel Literature, Dr. Hussein Muhammad Fahim, edition of the World of Knowledge series, National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, 1989 AD, Book No. 138, 15.
2) Egyptian Literature Under Ottoman Rule, Muhammad Sayyid Kilani, Dar Al-Ferjani, Cairo, Tripoli, London.
3) The intellectual legacy of Imam Muhammad Al-Khader Hussein, within the Encyclopedia of the Complete Works of Imam Muhammad Al-Khader Hussein, compiled and classified by his nephew, the lawyer Ali Al-Rida Al-Husseini, Dar Al-Nawader, Dar Al-Nawader Kuwaiti Company, first edition, 2010 AD.
4) Icons of Islamic Thought in the Modern Era, Ahmed Taymur Pasha, Dar Al-Afaq Al-Arabiyya, Cairo, 1423 AH/2003 AD.
5) Research in Arabic Narration, Muhammad Najib Al-Amami, Aladdin Library, Dar Noha, Sfax, first edition, 2005 AD.
6) History of Arabic Geographical Literature, translated from Russian: Salah al-Din Othman Hashem, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, second edition, 1987 AD.
7) The Masterpiece of the Hearts and the Chandelier of Admiration, Abu Hamid Al-Andalusi, New Horizons House, first edition, Morocco, 1983 AD.
8) Narrative techniques are the basis of the literary journey, Dr. Abdul Aleem Muhammad Ismail Ali, Tayeb Salih International Award for Written Creativity, eighth session.
9) Critical Studies in the Libyan Story, Fawzi Omar Al-Haddad, General Institution for Culture, Libyan Arab Jamahiriya, first edition, 2010 AD.
10) Dialogue: Its Backgrounds, Mechanisms, and Issues, Al-Sadiq Qassouma, Maskiliani Publishing and Distribution, Tunisia, first edition, 2009 AD